غابرييل غارسيا ماركيز



24.7.2015

عن الحب وشياطين أخرى

روايـــة

ترجمها عن الإسبانية د.وليد صالح





غابرييل غارسيا ماركيز

عن الحبّ وشياطين أخرى

ترجمها عن الإسبانية

الدكتور وليد صالح

نُقلت عن طبعة دار نشر « موندادوري »

برشلونة ١٩٩٤

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٥/١/٩٦)

رقم التصنيف : ٨٦٣
المؤلف ومن هو في حكمه: **غابريل غارسيا ماركيز**
ترجمة **الدكتور وليد صالح**
عنوان المصنف : **"عن الحب وشياطين أخرى"**
رؤوس الموضوعات : ١- القصة الإسبانية المترجمة
٢ -
رقم الإيداع : (١٩٩٥/١/٩٦)
الملاحظات : مكان النشر : عمان
الناشر : دار الشروق
* - تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

DEL AMOR Y OTROS DEMONIOS

* غابرييل غارسيا ماركيز: «عن الحب وشياطين أخرى» (رواية)

* الترجمة عن الإسبانية : **الدكتور وليد صالح**

* الطبعة العربية الأولى - الإصدار الأول ١٩٩٥

* الناشر : دار الشروق للنشر والتوزيع

ص.ب ٩٢٦٤٦٣ الرمز البريدي ١١١١٠

هاتف ٦١٨١٩٠/ ٦١٨١٩١/ ٦٢٤٣٢١

فاكس ٦١٠٠٦٥

عمان - الأردن

* التوزيع : المركز العربي للمطبوعات

ص.ب ٥٦٨٧ /١٣

هاتف ٨٦٢٩٩٤

بيروت - لبنان

* هذه هي الترجمة الكاملة لرواية :

DEL AMOR Y OTROS DEMONIOS

First Edition: Mondadori, Madrid 1994.

مقدمة الناشر

تنشر دار الشروق هذه الرواية لماركيز بعنوان «عن الحب وشياطين أخرى» وكانت قد نشرت له مجموعة قصصية بعنوان «الحب وشياطين أخرى» سنة ١٩٩٣، والحقيقة أن تلك الترجمة كانت لمجموعة ماركيز القصصية المعنونة:"Doce Cuentos Peregrinos" أي «إثنتا عشرة قصة مهاجرة»، وسبب اللبس الذي حصل هو أن الوكيل الأدبي لماركيز عرض علينا نشر المجموعة القصصية المذكورة أعلاه بعنوان "Del Amor Y Otros Demonios"، أي «عن الحب وشياطين أخرى»، ولكن عندما طبعت المجموعة القصصية، غيّر ماركيز رأيه كما يبدو، واستخدم عنوان «إثنتا عشرة قصة مهاجرة». واحتفظ بالعنوان الآخر لعمل قادم دون أن يعلمنا الوكيل بذلك. أما لجنة النشر في دار الشروق، فلم يرق لها عنوان «إثنتا عشرة قصة مهاجرة»، واختارت العنوان الأصلي المقترح، ولم تكن تعرف أن ماركيز سيصدر عملاً بهذا العنوان مستقبلاً.

واليوم، نشعر بالحرج قليلاً ونحن ننشر العمل الجديد مضطرين لاستخدام عنوانه الأصلي: «عن الحب وشياطين أخرى» ، وسنعيد مستقبلاً نشر المجموعة القصصية السابقة بعنوانها الأصلي.

لقد اعتقدت لجنة النشر، اجتهاداً منها، ضمن حقوقها، أن من الأجمل اختيار العنوان السابق، لكنها اليوم تلتزم التزاماً حرفيا بالعنوان، وكلها أمل أن يكون الموقف قد أصبح واضحاً.

الناشر

يبدو أن الجدائل لا بدّ لها من أن تنبعث

ولكن أقلّ بكثير من أجزاء الجسد الأخرى .

توما الاكويني

من « تمام الأجساد المنبعثة »

(قضيّة ٨٠ ، الفصل ٥)

كلمة لا بدّ منها

في روايته الأخيرة هذه، وكما هي الحال في معظم كتابات الروائي الكولومبي «غارسيا ماركيز»، يجد القارئ نفسه أمام عمل أدبيّ متكامل ذي بناء فنيّ محكم يصعب العثور عليه لدى الكثيرين من الكتّاب.

فبلغته الساحرة ينقلنا «ماركيز» إلى الأجواء الخاصّة والغريبة لمدينة كاريبية خلال القرن الثامن عشر، حيث تجري أحداث روايته.

يشدّ المؤلّف قارئه منذ الصفحات الأولى عندما يصف بالتفصيل ظروف التعايش بين عائلة أرستقراطيّة من المولّدين وجمع كبير من الخدم والعبيد ذوي الأصول المتنوعة الهندية والأفريقية. ومن خلال التعامل اليومي لتلك الجماعة، نطّلع على جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية لتلك الفترة، وعلى الكثير من عادات وتقاليد السكان الهنود الأصليين أو ذوي الأصول الأفريقية. وينعكس كل ذلك على سلوك أفراد تلك الجماعة المتعايشة: في اللغات المتنوعة التي يتحدّثونها، وفي الديانات والمعتقدات والشعائر والطقوس التي يمارسونها وورثوها عن قدمائهم.

وتدور الاحداث الرئيسيّة لهذه الرواية في إطار العائلة الأرستقراطية ذات الابنة الوحيدة، «سييرڤا ماريا». تذهب الابنة صباح أحد الايام برفقة إحدى الخادمات إلى السوق لشراء أوراق الزينة للاحتفال بعيد ميلادها الثاني عشر، فيعضّها كلب يعتقد الآخرون بانّه مصاب بالسُّعار. يصبح هذا الظنّ الفاسد سبب مأساة الطفلة التي تُرسل إلى دير «سانتا كلارا» لإخراج الأرواح الشريرة من جسدها الذي أصيب بمس شيطاني. وفي الدير تصبح الفتاة هدفاً لقسوة وشراسة رئيسة الدير والمعوّذين الذين يُذيقونها أشدّ أنواع العذاب.

تؤدي كلّ هذه الاجراءات المتعجرفة بالطفلة إلى مصير مأساوي، لم تنفع معه أعراض سلامتها العقليّة والجسديّة ومواهبها الجميلة في العزف والرقص والغناء والتحدّث بلغات هندية وأفريقيّة متنوّعة.

وإذا كانت الطفلة تمثّل أحد المحاور الرئيسية للرواية، فإنّ المحور الأساسيّ الآخر يمثّله الراهب «كايتانو دي لاورا» الذي قام الأسقف بتكليفه بمعالجة «سييرڤا ماريا» من المسّ الشيطاني. يقع هذا الرجل الثلاثيني الذي يتمتّع بالعديد من المواهب وبقاعدة ثقافية صلدة، يقع في حب الفتاة وتصبح نفسه موزعة بين العقل والقلب، بين الإيمان والحبّ، الأمر الذي يدفع الأسقف إلى عقابه وإبعاده عن مهامّه بالأسقفية.

ليست هذه رواية تأريخية على الرغم من ورود العديد من الحقائق ذات الأصول التاريخية الأكيدة فيها. فلا يخفى على أحد دور محاكم التفتيش، التي تمّ تشكيلها للمرّة الاولى في إسبانيا عام ١٢٤٢

لمتابعة تُهم الإلحاد، والتي اكتسبت قوّة جبّارة في عهد الملوك الكاثوليك في القرن الخامس عشر. وقد انتقلت مهمّات هذه المحاكم إلى دول أمريكا اللاتينية المكتشفة حديثاً. وفي عهد هؤلاء الملوك، لم تكن محاكم التفتيش مرتبطة بالڤاتيكان، بل بالمملكة مباشرة، وكانت مهمّتها الأساسية متابعة المتنصّرين المزيّفين، أي هؤلاء الذين اعتنقوا المسيحيّة رهبة لا رغبة. وتميزت فترة حكم «كارلوس الخامس» و «فيليب الثاني» بتمتّع تلك المؤسّسة بنشاط كبير، وتمّ الغاؤها بشكل نهائي عام ١٨٣٤.

ومن خلال هذه الرواية نطّلع على تفاصيل لمهامّ تلك المحكمة، من: متابعات المشكوك في عقيدتهم والاهتمام بمعالجة المصابين بمسّ شيطانيّ وطرد الأرواح الشريرة ومنع الكتب التي لا تتوافق مع العقيدة المسيحية، إلى غير ذلك.

وباختصار، فإنّ قارئ هذه الرواية، لن يخرج فقط بمتعة فنية وأدبية فحسب، بل إنّه يطّلع على الكثير من الأمور الجديدة، من حقائق اجتماعيّة وسياسية ودينية لشعوب ليس هناك من يعرفها أفضل من هذا الكاتب العبقري «غارسيا ماركيز».

المترجم : وليد صالح

بلنسية في ١ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٤

لم يحمل يوم ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٩ أية أخبار مهمّة ، فقد أنهى الأستاذ « كلمنتي مانويل ثبالا»، رئيس تحرير الصحيفة التي نشرت فيها سطوري الأولى كمخبر صحفي ، انهى اجتماعه الصباحي بإيعازين روتينيين أو ثلاثة .

لم يطلب من أي محرّر القيام بعمل أو مهمّة محدّدة . وبعد دقائق علم عن طريق مكالمة هاتفية بأنّ قبور سراديب دير «سانتا كلارا» القديم كانت تُفرغ ممّا فيها ، فأمرني بشيء من اللامبالاة : «إذهب إلى هناك عسى أن تطرأ لك فكرة» .

كان من المقرر بيع دير الراهبات التاريخي، الذي تمّ تحويله إلى مستشفى منذ حوالي قرن من الزمان، لإقامة فندق ذي خمس نجوم مكانه .

بدا مصلّى الدير الرائع معرّى تقريبا بسبب التهدم التدريجي لسطحه ، إلا إنّ سراديبه لا تزال تحتوي على قبور ثلاثة أجيال من الأساقفة ورئيسات الدير وناس ذوي مراتب . ابتدأت الخطوة الاولى بتفريغ القبور وتسليم البقايا لمن يطالب بها ودفن الباقي في حفرة مشتركة .

أدهشتني بدائية الأسلوب المتبع ، إذ أخذ العمّال يفتحون القبور بالمعاول والفؤوس ويخرجون التوابيت التالفة التي تفسخت بمجرّد تحريكها، وقاموا بعزل العظام عن الملاط والتراب المختلط بخرق من

الثياب والشعر الذابل . وكلّما ظهر أن الميّت أكثر أهمية ، بدا العمل أشدّ وأصعب ، فالعمال يحفرون ويبحثون في ثنايا الأجساد وينخلون بدقّة بقاياها بحثا عن الأحجار الكريمة والمصوغات. أمّا رئيس العمال فيسجل المعلومات الموجودة على شاهدة القبر في كرّاس مدرسي ، ويضع العظام في اكوام متفرقة، ثم يضع ورقة المعلومات على كوم العظام لئلاّ يحصل اختلاط فيما بعد . وهكذا وقعت نظرتي الأولى، عند دخولي المصلّى، على صفّ طويل من أكوام العظام التي سخنتها شمس تشرين الأول التي تسربت أشعتها من فتحات السقف. لم يكن هناك إذن ما يعرّف بأصحاب تلك العظام غير الاسم المكتوب بقلم الرصاص على قطعة ورق صغيرة . وبعد مرور حوالي نصف قرن على ذلك الحدث ، ما زلت أشعر بذلك الذهول الذي سبّبته لي تلك الشهادة المرعبة لمرور السنوات الفانية .

من بين أصحاب تلك العظام: نائب ملك للبيرو، وعشيقته السريّة، والسيّد «توريبيودي كاثيرس إي ڤرتودس» أسقف هذه الكنيسة، والكثيرات من رئيسات الدير ، كالامّ «خوسيفينا ميراندا»، والحائز على البكلوريا في الفنّ السيّد «كرستوبل دي إراسو» الذي أمضى نصف حياته في الصناعات اليدوية. فجأة شاهدنا قبراً مغلقاً عليه شاهدة باسم الماركيز الثاني لـ«كاسالدويرو» السيّد «إگنائيو دي ألفارو إي دوينياس» ، وعندما فتح العمال القبر وجدوه فارغا ولم يدفنُ فيه أحد من قبلُ . في حين أنّ بقايا الماركيزة السيّدة «أوليّا دي مندوثا» وشاهدتها الخاصّة بها كانت في القبر المجاور .

لم يأبه رئيس العمال بذلك، إذ كان من المألوف أن يُجهّز نبيل من أصل أوروبيّ قبره الخاصّ ويدفن في غيره عند وفاته .

في الكوّة الثالثة للمذبح الأكبر ، إلى جانب المكان الذي يوضع فيه الإنجيل، وجدت الخبر الذي أنشده . تحطّمت شاهدة قبر إثر أول ضربة معول وانبعثت خارجه جديلة حيّة ذات لون نحاسي كثيف . حاول رئيس العمّال إخراجها كاملة، بمساعدة عمّاله ، لكنهم كانوا كلما سحبوا منها جزءاً تبدو أشدّ طولا وغزارة. واستمر الشد والجذب إلى أن خرجت آخر خصلات الشعر المغروزة في جمجمة طفلة . لم يبق في الكوة غير عظيمات رقيقة متفرقة . وعلى شاهدة القبر الحجري المتآكلة بسبب التملّح لم يستطع أحد قراءة شيء سوى الاسم واللقب: «سييرڤا ماريا دي تودوس لوس أنخليس» . كانت الجديلة الرّائعة الممدودة على الأرض بطول اثنين وعشرين متراً وأحد عشر سنتمتراً .

فسّر لي رئيس العمّال ما شاهدته ، دون دهشة تُذكر، فقال: «إن شعر الإنسان ينمو بطول سنتمتر واحد كلّ شهر حتّى بعد الوفاة، وإنّ هذه الأمتار الاثنين والعشرين تبدو معدّلا مناسباً لنمو استمر مدة مئتي عام». لم يبد لي ما قاله أمراً تافها ، فجدّتي كانت تروي لي في صغري أسطورة الماركيزة الصغيرة، ذات الاثني عشر عاماً، التي كانت جديلتها تنثال وراءها وكأنّها ثوب زفاف ، والتي ماتت مسعورة إثر عضّة كلب. كانت الماركيزة الصغيرة مبجّلة لدى شعوب «الكاريبي» لكثرة معجزاتها، لذا فإن إمكانيّة أن يكون ذلك القبر قبرها كانت موضوع خبري الصحفي لذلك اليوم وكانت ايضاً سبب هذا الكتاب.

«غابرييل غارسيا ماركيز »

«كرتخينا دي اندياس» ١٩٩٤

(١)

اقتحم كلب رماديّ تعلو جبهته غرّة أوعار السوق في يوم الأحد الأول من شهر كانون الأول(ديسمبر)؛ قلب موائد المقليات، وحطّم اكشاك الهنود ومظلات اليانصيب ، وعضّ في طريقه أربعة أشخاص تقاطعوا معه في الطريق: ثلاثة من العبيد السود، و«سييرڤا ماريا دي تودوس لوس انخليس» - الابنة الوحيدة لماركيز «كاسالدويرو» - التي خرجت مع إحدى الخادمات إلى السوق لشراء سلاسل من أوراق الزينة ذات الجلاجل بهدف إحياء حفل عيد ميلادها الثاني عشر .

أعطيت الأوامر للاثنتين بعدم تجاوز بوابة التجار ، غير إنّ الخادمة التي أغرتها ضوضاء ميناء النخاسة، حيث كان التجار على وشك الإنتهاء من بيع حمولة من.عبيد «غينيا»، غامرت فجرّت الفتاة معها حتى الجسر المتحرك القائم في ضواحي «خيتشيماني».

ظل مركب «شركة قادش للعبيد» ينتظر بحذر منذ أكثر من

أسبوع بسبب الموت الغامض لبعض الركاب المبحرين، ولاخفاء الأمر رميت الجثث في الماء بشكل متهور ، غير إنّ هيجان البحر أخرجها إلى السطح وبدت في الصباح الباكر ملقية على الشاطئ مشوهة متورمة واكتسبت لونا كبريتيا غريباً . رسا المركب بعيداً عن الخليج خوفاً من ان تكون تلك الظاهرة ناجمة عن تفشّي وباء إفريقي، وحتى يتم التأكد من انّ الامر لم يكن سوى تسمّم ببعض الأطعمة الباردة الفاسدة.

في وقت مرور الكلب بالسوق ، كانت حمولة الناجين من الموت قد تمّ بيعها بثمن مخفّض لسوء حالتهم الصحيّة، ولتعويض الخسارة بيعت عبدة بثمن جميع من ماتوا. كانت العبدة أسيرة حبشيّة طولها سبعة أشبار، وبدت ملطخة بالدبس الأسود المستخرج من القصب بدلا من الزيت التجاري الأصيل . جعلها جمالها الخلاّب تبدو كالدمية: لها أنف رقيق ورأس مستوٍ وعينان زائغتان وأسنان في غاية الكمال، وظهرت بالمحمل كمصارع روماني. عندما عرضت للبيع لم يتحدث أحد عن صفاتها ولم يذكر أي شيئ عن عمرها أو صحتها، لأن جمالها كان كافياً لبيعها. وقد دفع الحاكم الذي اشتراها، من دون مساومة، وزنها ذهباً .

كان من المألوف في تلك الناحية رؤية الكلاب الضالة كلّ يوم وهي تعضّ المارين وتجري وراء القطط وتتخاصم مع الصقور على جيف الحيوانات الميتة، وبخاصةّ في ايام الوفرة والازدحام، حيث يمرّ أسطول السفن الشراعيّة للمشاركة في موسم «پوتوبيلو» . فأربع أو خمس عضّات كلب لا تقلق احداً، ولا سيّما إذا كان الجرح بسيطاً كما هو الحال مع «سييرڤا ماريا» ، إذ لم تُرَ عضّتها إلا بالكاد في كعبها

الأيسر .

وهكذا لم يصب الخادمة القلق، وعالجت الطفلة بنفسها واضعة على جرحها قليلاً من الليمون والكبريت بعد غسل بقعة دم لطّخت فستانها . ولم يفكّر أحد بعد ذلك بشيء آخر غير افراح عيد ميلادها الثاني عشر .

في فجر ذلك اليوم، كانت «برناردا كابريرا»، أمّ الطفلة وزوجة ماركيز «كاسالدويرو» المجرّدة من ألقاب النبالة ، قد تناولت جرعة مأساويّة : سبع حبّات من مادة الأنتيمون في كأس من السكّر الورديّ. وبرناردا هذه امرأة مولّدة شجاعة من الفئة المسمّاة بارستقراطيّة الموائد؛ فتّانة، جشعة، ومحبّة للهو؛ اشتهرت بشراهتها إلى درجة قدر معها أن ما تأكله يكفي كتيبة، ومع ذلك فإنّ نهمها اختفى لافراطها في تناول العسل المخمّر وأقراص الكاكاو . انطفأت عيناها الغجريتان وزال.توقّد ذكائها، وكانت تتغوّط دماً وتتقيّأ الصفراء، وغدا جسمها القديم الشبيه بعروس البحر متورماً نحاسياً وكانّه جسم ميّت منذ ثلاثة أيام. كانت تطلق أرياحاً متفجرة نتنة تخيف كلاب الحراسة . لم تكن تخرج من غرفتها إلاّ نادراً، وإن خرجت سارت عارية أو مرتدية معطفاً من الصوف من دون لباس آخر تحته ، الأمر الذي يجعلها تبدو أكثر عرياً .

استعملت «برناردا» المرحاض سبع مرّات قبل عودة الخادمة التي رافقت «سيرڤا ماريا»، والتي لم تخبرها بشيء عن عضّة الكلب، بل اكتفت بأن تروي لها فضيحة الميناء وموضوع الاتجار بالعبدة. خاطبتها

«برناردا» : «إذا كانت جميلة إلى هذا الحدّ كما تقولين فلابد أنها حبشيّة» . وخاطبت نفسها: حتّى وإن كانت ملكة سبأ، فمن غير الممكن أن يدفع أحد وزنها ذهباً . وقالت :

- «تقصدين أنهم دفعوا ثمنها بعملات ذهبيّة » .

- «لا، ليس ذلك». و أوضحت لها الخادمة المقصود بـ«قدر وزنها ذهباً» .

فأضافت «برناردا» :«إنّ عبدة بطول سبعة أشبار لا يمكن ان تزن أقلّ من مئة وعشرين رطلاً ، وليس هناك امرأة، سواء أكانت سوداء أم بيضاء، تساوي مئة وعشرين رطلاً من الذهب ، إلاّ إذا كانت تتغوّط جواهر ».

لم يضاهِ أحد مكرها في تجارة العبيد ، ولذا ضمنت بأنّ الحاكم الذي اشترى الحبشية لم يكن يريدها للعمل خادمة في مطبخه فحسب، بل ربما أرادها لأمر جليل . في هذه اللحظات بدأت «برناردا» تسمع المزامير الأولى للحفلة، ومفرقعات مصحوبة بجلبة كلاب الحراسة المحبوسة . خرجت إلى حديقة أشجار البرتقال لترى ما الذي يجري . كان السيّد«إگناثيو دي الفارو إي دوينياس» الماركيز الثاني لـ «كاسالدويرو» وسيّد «دارين» قد سمع أيضاً الموسيقى من أرجوحة القيلولة المعلقة بين شجرتي برتقال في الحديقة. كان «إكناثيو» رجلاً كئيباً يحمل أفكاراً تقدميّة . بدا شاحباً مثل زنبقة لأن الوطاويط درجت على فصد دمه اثناء نومه . اعتاد أن يرتدي في البيت جلباباً بدوياًّ وقلنسوة من «طليطلة»، تزيد من مظهر الخذلان والهجر الذي

يعانيه . عندما رأى امرأته كما خلقها الله، باذرها بالسؤال :

- «ما هذه الموسيقى ؟ »

- «لست أدري ... في أيّ يوم نحن ؟ »

لم يعرف الماركيز الجواب. وخشي من توجيه نفس السؤال إلى زوجته، لأنها قد تسخر منه إن كانت وطأة الصفراء قد خفت عنها. جلس في الأرجوحة متأملاً وفجأة عادت المفرقعات لتنفجر من جديد.

صرخ:

- «يا إلهي في أيّ يوم نحن ؟».

كان المنزل مليئاً بالسجينات المجذوبات من رعاة الكنيسة؛ وعندما أهاجتهن الموسيقى وأصوات المفرقعات، وقفن على السطح المحاذي لحديقة أشجار البرتقال وأخذن يستقبلن كلّ انفجار بهتاف. سألهنّ الماركيز عن مكان الاحتفال فأخبرنه به. كان اليوم هو السابع من شهر كانون الأول (ديسمبر) ، يوم القديس الأسقف «أمبروسيو». رعدت الموسيقى والمتفجرات في فناء سكنى العبيد على شرف «سييرڤا ماريا» . صفع الماركيز جبهته قائلاً :

- «طبعاً . كم صار عمرها ؟ »

أجابته «برناردا» : «اثني عشر عاماً »

- «إثني عشر عاماً» وأضاف وهو يستلقي.

- «اثني عشر عاماً لا غير ؟ »، قال الماركيز ذلك من جديد في

الأرجوحة .

– «يالها من حياة بطيئة».

كان هذا المنزل موضع فخر المدينة حتّى بداية القرن . أمّا الآن فإنّه مجرّد خربة كئيبة ويبدو كأنّ أهله قد انتقلوا منه لكثرة فراغاته ولوجود الكثير من الأشياء خارج أماكنها. ما زالت الصالونات تحافظ على أرضيتها المبلطة بالمرمر ذي الاشكال الشطرنجية، وعلى بعض الثريات ذات الكرات البلّوريّة المكسوّة بخيوط العنكبوت. أمّا الحجرات فما زالت تنمّ عن حياة ، ودرجات الحرارة فيها منعشة في كلّ الاوقات للسمك الكبير لجدرانها المبنيّة من الحجر، ولبقائها مغلقة لسنوات طويلة ، والأكثر من ذلك بفعل نسمات شهر كانون الأول التي كانت تدخل مُصفرةً من خلال الفجوات . كان كلّ شيء مشبّعا برطوبة الليل الثقيلة والإهمال والظلام . وأما الشيء الوحيد المتبقي من كبرياء عظمة الماركيز فهو كلاب الحراسة والصيد الخمسة التي كانت تحرس المنزل في الليل .

كان فناء العبيد الصاخب ، حيث أقيم الاحتفال بعيد ميلاد «سييرڤا ماريا»، عبارة عن مدينة داخل مدينة في أيام الماركيز الأول، واستمرّ على تلك الحال طوال أيام التجارة الملتوية للرقيق والدقيق التي كانت تقوم بها «برناردا» في أوقات فراغها منذ عهد تجارتها الصغيرة في «ماهاتيس» . أمّا الآن فإنّ ايّ ازدهار لا يعود الاّ إلى الماضي. لقد انتهت «برناردا» بسبب رذيلتها التي لا ترتوي، وتقلص فناء منزلها إلى كوخين من الخشب، بسقفين مصنوعين من جريد النخيل المرّ، استهلك

فيهما الرصيد الأخير لتلك السيادة .

كانت «دومنگا أدڤنتو» ، وهي عبدة أصيلة حكمت ذلك المنزل بيد من حديد إلى ما قبل وفاتها بقليل، حلقة الوصل بين هذين العالمين: عالم السيادة وعالم الانحدار. كانت طويلة ضخمة ذات ذكاء نافذ تقريباً ، وهي التي ربّت «سييرڤا ماريا». اعتنقت الدين المسيحيّ دون أن تتنازل عن إيمانها بمذهب «يوروبا»، ولذا مارست الاثنين في نفس الوقت من دون نظام أو قانون .

درجت «دومنكا» على القول بأن روحها تنعم بسلام تامّ، لأنّ ما كان ينقصها في واحد من الدينين ، تعثر عليه في الآخر . كانت الشخص الوحيد الذي يتمتّع بكفاءة التوسّط بين الماركيز وزوجته، وكان الاثنان يرضيانها . كما كانت الوحيدة القادرة على طرد العبيد بضربات المكنسة عندما تجدهم يمارسون اللّواط أو عندما تجد احدهم يمارس الجنس مع امرأة أخرى غير زوجته في الحجرات الفارغة . بعد وفاتها أخذ العبيد يهربون من الأكواخ ، مبتعدين عن حرارة الظهيرة، ويستلقون على الارض، في أيّ ركن ، ويكشطون بقايا الرزّ في القدور لأكلها، أو يلعبون لعبة «الماكوكو» و«التربيّة»في الممرات المنعشة. في ذلك العالم الجائر لم يشعر أحد بالحريّة إلاّ «سييرڤا ماريا». كانت تشعر بالحرية ولأنّ الحفلة أقيمت في بيتها الحقيقي ومع عائلتها الحقيقية . في خضم الحفلة لم يكن بالامكان رؤية رقصة أشدّ صمتاً مما جرى في وسط ذلك الكمّ الهائل من الموسيقى ومن الرقص مع عبيد الدار أنفسهم ومع آخرين قدموا من منازل أخرى معروفة ليشاركوا بما يستطيعون .

بدت الطفلة كما هي على حقيقتها ، ورقصت بخفّة وجمال يفوقان ما امتاز بهما الأفارقة الأصليين ، وغنّت باصوات مختلفة عن صوتها الحقيقي وبلغات أفريقية متعددة، أو بأصوات طيور وحيوانات أثارت دهشة الحضور. بأمر من «دومنگا أدڤنتو» صبغت العبدات الشابات وجه الطفلة بسواد السخام، وألبسنها قلائد المناسبات المقدسة فوق وشاح التعميد، ومشطن شعرها الذي لم يقص مطلقاً، وحتى لا يعرقل سيرها جدلنه ظفائر وربطنه فوق رأسها كما اعتدن أن يفعلن كل يوم.

بدأت الطفلة تتفتح كالازهار وسط قوى متناقضة . لم تأخذ عن امّها إلاّ القليل ، في حين انّها أخذت عن أبيها الجسم النحيل والخجل الذي لا علاج له، والبشرة الضاربة للسواد، وزرقة العينين الهادئة، ولون الشعر النحاسي اللاّمع. امتازت بصمتها الذي بدت معه كأنّها مخلوقة لا يمكن رؤيتها . كانت أمها التي تخاف عليها، لتمتّعها بكلّ ما سبق من صفات ، تعلّق في معصمها جُلجُلاً لكي تستدلّ به على مكان تواجدها وكي لا تضيع في ظلام المنزل .

بعد انتهاء الحفلة بيومين زلّ لسان الخادمة وأخبرت «برناردا» أن كلباً قد عضّ «سييرڤا ماريا» . فكرت «برناردا» بالأمر أثناء استحمامها للمرّة السادسة بالماء الساخن والصابون المعطّر . وعندما عادت إلى غرفة النوم نسيت ما سمعت، ولم تتذكر الأمر الاّ في الليلة التالية، لانّ كلاب الحراسة نبحت بلا سبب حتّى ساعة الفجر فخشيت أن تكون الطفلة مصابة بداء الكَلَب . وعندئذ ذهبت، وبيدها الشمعدان، إلى أكواخ الفناء فوجدت «سييرڤا ماريا» نائمة في الأرجوحة المصنوعة من

ثوب خفيف، تلك التي ورثتها عن «دومنگا دي أدڤنتو» . ولأن الخادمة لم تخبرها عن مكان العضّة، رفعت قميص نوم الطفلة الصوفي وتفحصت جسدها شبراً شبراً ، متتبعة، على ضوء الشمعدان، جديلتها التي لم تقص بسبب نذر؛ كانت الجديلة ملتفّة حول جسد الفتاة كذيل أسد . واخيراً عثرت على العضّة : جرح في الكعب الأيسر مغطى بقشرة يابسة من الدم، وبعض الخدوش التي لا تكاد تُرى في عقبها .

لم تكن حالات داء الكلب قليلة أو عديمة الأهميّة في تاريخ المدينة. والحالة الأكثر شهرة هي ما روي عن بائع متجوّل اعتاد التجول في الطرقات ومعه قرد مدرب لم يتميّز سلوكه عن السلوك الإنساني إلاّ قليلاً. أصيب الحيوان بالسّعار أثناء الحصار البحري الإنجليزي، وعضّ صاحبه في وجهه وفرّ هارباً إلى التلال القريبة. وكنتيجة لتلك الحادثة قتل السكان المشعوذ بالهروات مرددين هلوسات مرعبة ما برحت الأمهات يرددنها على مسامع أطفالهنّ لإخافتهم لسنوات عديدة تالية . وقبل أسبوعين نزلت مجموعة من القردة الشيطانيّة من الجبال، في وسط النهار، وأثارت الرعب في زرائب الخنازير وأقنان الدجاج، واقتحمت الكاتدرائية مولولة، وهي على وشك الاختناق من الدم الذي سفحته. حدث ذلك في نفس الوقت الذي كان يقام فيه احتفال الشكر لهزيمة الأسطول الإنجليزي.

دخلت هذه الحادثة تاريخ المدينة، في حين أن مآسٍ أشد هولاً، أصيب أصحابها بداء الكلب، لم تدخله. فسكان المدينة يحمون، عادة، المصابين من السود بمعالجتهم بالسحر الأفريقي عند سياج حظائر

الحيوانات.

على الرغم من جميع هذه القصص ، لم يهتم أحد من البيض أو السّود أو الهنود بداء الكَلَب، ولا بأي مرض آخر مما تظهر أعراضه ببطئ، أما إذا بلغ المرض مبلغه فإنهم يغيرون موقعهم. حملت «برناردا كابريرا» نفس وجهة النظر ، واعتقدت أن خرافات العبيد أشدّ وأكثر أثراً من خرافات المسيحيين ، وأنّ عضة كلب بسيطة يمكنها أن تضرّ بشرف العائلة وسمعتها. بدت متأكدة من ظنونها إلى درجة لم تذكر معها الأمر لزوجها، ولم تتذكره إلاّ يوم الأحد التالي عندما ذهبت الخادمة إلى السوق وحيدة ووجدت جثّة كلب معلقة على شجرة لوز كي يعرف الناس أنّ الكلب مات بداء السّعار . اكتفت الخادمة بنظرة واحدة للتعرّف على غُرّة الجبهة والشعر الرمادي للكلب الذي عضّ «سييرڤا ماريا» ، وعندما أخبرت «برناردا» بما شاهدته لم تقلق هذه الأخيرة لأن الجرح قد جف ولم تبق أية آثار للخدوش .

لم تكن بداية شهر كانون الأول (ديسمبر) طيبة ، غير إن الشهر استعاد بسرعة أمسياته اللطيفة ولياليه المجنونة النسمات . كانت احتفالات أعياد الميلاد أكثر سعادة من السنوات السابقة بسبب الاخبار الطيبة القادمة من إسبانيا ، غير إنّ المدينة لم تعد كما كانت عليه في السابق، فقد انتقل سوق العبيد المركزي إلى «هاڤانا» ، امّا البحارة وأثرياء تلك الارض ، فانّهم كانوا يفضّلون شراء الايدي العاملة لاعمال التهريب بأثمان أرخص في جزر الأنتيل الإنجليزية . وهكذا فقد كانت هناك مدينتان : واحدة سعيدة ومزدحمة خلال الأشهر الستة الأولى من السنة التي يمكث فيها بحارة السفن الشراعيّة، وأخرى

غافية تحلم بعودتهم خلال النصف الثاني من العام.

لم يعرف الماركيز أيّ شيء عن المعضوضين حتى بداية كانون الثاني (يناير) ، عندما طرقت «ساگنتة» ، بابه في ساعة قيلولته المقدسة. و«ساكنته» هذه امرأة هندية معمّرة مشّاءة اعتادت السير حافية في عزّ الشمس ، مستندة على عكاز خشبي، ومتلفعة من الرأس حتى القدمين بملاءة بيضاء . كانت سمعتها سيّئة إذ يشاع أنّها تقوم بترقيع أغشية البكارة والإجهاض ، غير إنّ ما عوّض تلك السمعة شهرتها الطبّية في معرفة أسرار الهنود وشفاء المحتضرين منهم .

استقبلها الماركيز بلا رغبة في الدهليز دون أن يدعوها للجلوس، وتأخّر في فهم مرادها ، إذ إنّها امرأة بطيئة تمتاز باللفّ والدوران. أسهبت في كلامها ولفّت ودارت للوصول إلى الموضوع مما أفقد الماركيز صبره فقال لها :« ليكن الأمر ما يكون ، اخبريني عنه بلا لفّ».

قالت « ساكنتة»:

- «إنّنا مهدّدون بوباء داء الكَلَب، وأنا الوحيدة التي تملك مفاتيح القديس «هوبيرتو»، حامي الصيادين ومخلّص المصابين بالسّعار».

قال المركيز:

- «لا ارى سبباً للوباء ، فلم تصلنا أية أنباء عن مُذَنّبات أو كسوف على حدّ علمي، ونحن لم نقترف ذنوباً كبيرة حتّى ينشغل

الخالق بأمرنا » .

أخبرته «ساگنتة» بأن كسوفاً تاماً للشمس سيحصل في شهر آذار (مارس)، وزودته بمعلومات كاملة عن المعضوضين في يوم الأحد الأول من شهر كانون الأول (ديسمبر) . إثنان منهما اختفيا بعد أن خبأهما أصحابهما لمعالجتهما بالسحر، وأما الثالث فقد مات بداء الكَلَب في الأسبوع الثالث . وثمة شخص رابع لم يعضّه كلب بل تلطّخ بلعابه فقط، وبقي يحتضر في مستشفى «أمور دي ديوس» . وأمر الحاجب حينها بتسميم ما يقارب مئة كلب ضال خلال ذلك الشهر. ولو دام الأمر على تلك الحال، لما بقي أيّ كلب حيّ في الشارع بعد أسبوع.

أجابها المركيز:

– « على كلّ حال، لست أعلم ما صلتي بكلّ هذا » واضاف قائلاً :«وخاصّة في وقت غير لائق كهذا» .

قالت ساكنتة:

– «إبنتك هي المعضوضة الأولى» .

أجابها الماركيز بقناعة كبيرة :

– «لو كان الأمر كذلك ، لكنت أول من يعرف » .

كان يظنّ أن الطَفلة في حالة جيّدة، وأنّ من غير المعقول أن يكون قد جرى لها شيء بهذه الخطورة دون أن يعرف بذلك . وهكذا

فقد اعتبر الزيارة منتهية وذهب لاكمال قيلولته .

على الرغم من إبدائه عدم الأهتمام بما سمع إلاّ ان المركيزبحث مساء ذلك اليوم عن «سييرڤا ماريا» في فناءات الخدمة . وجدها تساعد في سلخ بعض الأرانب، وجهها مطليّ بالسواد ، حافية، وعلى رأسها عمامة الخادمات ، فسألها إن كان خبر عضّة الكلب صحيحاً ، فأجابته بالنفي القاطع . غير إنّ «برناردا» اكّدت له الخبر في تلك الليلة فسألها الماركيز حائراً :

– «ولمَ تنكر «سييرڤا ماريا» الخبر ؟ » .

أجابته برناردا:

– «لأنّه ليس بإمكانها أن تقول الصدق لمرّة واحدة ولو عن طريق الخطأ » .

قال المركيز:

– «إذن لا بدّ من التصرّف لأنّ الكلب كان مسعوراً » .

قالت «برناردا»:

– « على العكس ، فالاحتمال الأكبر أنّ يكون الكلب قد مات إذا عضّها. لقد وقع هذا الأمرفي كانون الأول وما زالت الوقحة مثل زهرة » .

بقي الاثنان منتبهين إلى الإشاعات المتنامية حول خطورة الوباء ، وتحادثا مرّة أخرى، دون رغبة منهما، في شؤون مشتركة، كما كانت تجري عليه الحال في الأوقات التي لا يكون الكره بينهما قد بلغ هذا الحدّ . بدا الأمر له واضحاً ، فقد اعتقد دائماً أنه يحبّ ابنته، غير

إنّ خوفه من داء الكَلَب أجبره على الاعتراف بأنه يخادع نفسه طلباً للراحة . امّا «برناردا» فإنّها لم تكلّف نفسها التساؤل للتأكد من عدم حبّها لابنتها وعدم حبّ الابنة لها ، وبدا لها الأمران متساويين، وأنّ الكثير من الكره الذي حملته لابنتها يعود إلى كونها تحمل طبائع وصفات ورثتها عن والديها . ومع ذلك ظهرت «برناردا» جاهزة للقيام بمهزلة العويل وسفك الدموع ولبس الحداد كأيّ أمّ منكوبة، للحفاظ على شرفها شرط ان تكون اسباب موت ابنتها معقولة وكريمة .

قالت «برناردا»:

- « لا تهمّني الاسباب، باستثناء داء الكَلَب».

فهم الماركيز في تلك اللحظة معنى حياته، وكما لو إنّ خيطاً من نور سماويٍّ مرّ برأسه قال باختصار :

- «لن تموت الطفلة، واذا كان الموت مكتوباً عليها ، فليكن بارادة الخالق » .

في يوم الثلاثاء ذهب الماركيز إلى مستشفى «أمور دي ديوس» الكائن فوق هضبة «سان لاثارو»، لرؤية الشخص المصاب بداء الكلب الذي أخبرته عنه «ساگنتة». لم يع آنذاك بأنّ عربته ذات الاشرطة الجنائزية سوف تُرى كعلامة أخرى للماسأة التي كانت علائمها تلوح شيئاً فشيئاً ، إذ إنّه لم يكن يغادر منزله منذ سنوات طويلة إلاّ لأمور مهمّة ، ومنذ سنوات طويلة لم تحدث إلاّ الأمور المنحوسة .

كانت المدينة غارقة في خمولها الأزلي ، ومع ذلك فقد لمح

أحد ما في محيّاه الشاحب وعينيه الزائغتين رجلاً حائراً. ترك عربته خارج المبنى المسوّر وتوجه مشياً، عبر الحقول، إلى هضبة «سان لاثارو» . في المستشفى رآه المصابون بالجذام والمنطرحون على الأرضيّة المرصوفة بالطابوق. رأوه يدخل وعلى وجهه سحنة الموت فسدّوا عليه الطريق مطالبينه بصدقة . وفي ردهة المرضى الذين يعانون من الهياج الدائم شاهد المصاب بداء الكلب مربوطاً إلى عمود .

كان المصاب رجلاً مسنّاً من المولدين ؛ شعر رأسه أبيض ولحيته كالقطن. كان نصف جسده مشلولاً ، غير إنّ داء الكَلَب شحن النصف الآخر بقوة هائلة اضطرّت المسؤولين إلى ربطه خوفاً من أن يتحطّم وهو ينطح الجدران . لم يترك كلامه مجالاً للشكّ في أنّ الكلب الرماديّ ذا الغرّة البيضاء الذي عضّه هو نفس الكلب الذي عضّ «سييرڤا ماريا». قيل للماركيز إن لعاب الكلب لم يلطخ جسده السليم، بل وقع على تقرّح في بطّة ساقه، ولكن هذا التفسير الاخير لم يكن كافياً لتهدئة الماركيز، فترك المستشفى مرعوباً من رؤية ذلك الرجل المحتضر، ولم يبق لديه أيّ امل لـ «سييرڤا ماريا» .

عندما عاد إلى المدينة التقى الماركيز عند قاعدة الهضبة برجل بهي المظهر يجلس فوق صخرة اعترضت الطريق، وإلى جانبه حصان ميّت. أوقف الماركيز العربة ولم يعرف هويّة الرجل الاّ بعد وقوفه على قدميه، فإذا هو الطبيب الأكثر شهرة والأكثر إثارة للجدل «أبرينونثيو دي ساپريرا كاو» . بدا الطبيب شديد الشبه بملك ورق اللعب. اعتمر قبّعة ذات حواف كبيرة لتقيه من الشمس ، ولبس حذاء لركوب الخيل ورداء اسود مما يرتديه المحامون القدماء . حيّا الطبيب الماركيز بتحية

نادرة نوعاً ما قائلاً باللاتينية :«تبارك الذي جاء باسم الحقّ ! » .

لم يتحمل حصان الطبيب هبوط الهضبة مثلما صعدها خبباً فانفجر قلبه . حاول «نبتونو» سائق عربة الماركيز أن ينزع السرج عن حصان الطبيب، غير إنّ الطبيب اقنعه بالعدول عن المحاولة قائلاً :« وما الذي سأفعله بسرج إن لم أملك حصاناً اسرجه؟ اتركه ليتعفّن مع الحصان » .

ساعد سائق العربة الطبيب أثناء صعوده عربة الماركيز لضخامته الصبيانيّة ، وأكرمه الماركيز إذ تركه يجلس إلى يمينه . كان «أبرينونثيو» يفكّر بالحصان فقال متحسّراً :

– «أشعر وكانّ نصف جسدي قد مات ».

قال الماركيز:

– «ليست ثمة مشكلة اسهل على الحلّ من موت حصان» .

تشجّع «ابرينوثيو» وأضاف : «كان هذا الحصان مختلفاً ، ولو كنت امتلك الوسائل لدفنته في أرض مقدسة». نظر الى الماركيز منتظراً ردّ فعله ، ثمّ ختم قوله: «لقد أتمّ مئة سنة من عمره في شهر تشرين الأول» .

قال الماركيز:

– «لا يوجد حصان يعيش إلى هذا العمر».

- «بإمكاني البرهنة على ما أقول».

كان الطبيب يعمل أيام الثلاثاء في مستشفى «امور دي ديوس» لمساعدة المجذومين والمصابين بأمراض أخرى . وكان من قبل تلميذاً بارزاً لحامل إجازة طبية يدعى«خوان ميندث نييتو»، وهو أيضاً يهوديّ برتغالي، هاجر إلى الكاريبي هرباً من المطاردة الإسبانية. ورث الطبيب عن هذا المهاجر سمعته السيئة التي اكتسبها لممارسته ألسحر ولسلاطة اللسان ، ومع ذلك لم يشكّ أحد في علمه ودعاواه مع الأطباء الآخرين الذين لم ترضهم آراؤه الصائبة، ولم يحتملوا إنجازاته التي حققها بطرق غير مألوفة، وخاضوا معه صراعات دائمة ودموية .كان قد اكتشف أقراصاً يتناولها الشخص مرّة في العام فتحسّن صحته وتطيل حياته، غير إنّها تسبّب اختلالا كبيراً في القوى العقلية في الايام الثلاثة الاولى؛ ولكن أحداً غيره لم يتجرأ على تناولها . في وقت سابق درج على أن يعزف على الجُنك عند رأس المريض لتسكينه بموسيقى وضعها لأجل هذا الغرض . لم يمارس الجراحة لأنّه يعتبرها فنّاً دونياً يمارسه المتحذلقون والحلاقون فقط. أما اختصاصه المرعب فهو توقّعه يوم وساعة موت المريض . ومع ذلك تعايشت سمعتاه الطيبة والسيّئة معاً بنفس المستوى. قيل عنه، ولم ينفِ أحد ذلك، بأنّه بعث أحد الأشخاص من الموت.

على الرغم من خبرته تأثر «أبرينونثيو» لحالة المصاب بالسّعار وأخذ يقول :« لم يخلق الجسم الإنساني لتحمّل كلّ تلك السنوات التي يعيشها أحدنا ». حرص الماركيز كلّ الحرص على سماع كلّ كلمة من محاضرته الدقيقة والمتنوعة ، ولم يتكلّم إلاّ بعد أن صمت

الطبيب ولم يجد ما يضيفه.

سأل الماركيز:

- «ما الذي يمكن عمله بهذا الرجل المسكين؟».

أجاب «أبرينونثيو»:

- «انْ يُقتَلَ».

نظر اليه الماركيز مرعوباً.

تابع الطبيب دون تأثر:

«هذا أقلّ ما يمكن عمله لو كنّا مؤمنين حقاً، لا تندهش لذلك يا سيّد ، فإنّ هناك مؤمنين خيّرين اكثر ممّا يمكن ان نتصوّر ».

وكان يقصد ،في الواقع، المسيحيين الفقراء من أيّ جنس ولون، الذين يعيشون في الرياض والحقول، والذين وجدوا في أنفسهم الشجاعة الكافية لوضع السُّمّ في طعام المصابين بداء الكلب، لكي يمنعوا عنهم العواقب المرعبة. وفي نهاية القرن السابق تناولت عائلة، بكامل أفرادها الشوربة المسمومة لأن أحداً لم يجرؤ على تسميم طفل منها عمره خمس سنوات .

وختم الطبيب حديثة قائلاً:

-« ومن المفترض أنّنا نحن الأطبّاء ، لا نعرف أن أموراً مثل هذه تحدث، لكن الامر ليس كذلك، فنحن نفتقر إلى المسؤولية الخلقيّة

لدعم مثل هذه التصرفات رغم أننا نمارس ضد المحتضرين أفعالاً مثل التي رأيتَها بنفسك الآن ، ونتوسّل بالقدّيس «هوبيرتو»، ونقيدهم إلى عمود كي يحتضروا بشكل أسوأ ولوقت أطول ».

سأل الماركيز

- «ألا توجد وسيلة أخرى ؟».

أجاب الطبيب

- « بعد شتم داء الكلب ، ليس هناك أيّ علاج ».

ثم تحدث عن بحوث ورسائل مفرحة تعتبر داء الكلب مرضاً قابلاً للعلاج بتهيئة مركبات متنوعة مثل : الزنجفر، والمسك، والزئبق الارجنتيني، والقلقلة. منها ما يصلح لداء الكبد.

وأضاف الطبيب:« في الواقع، يصاب البعض بالسّعار ولا يصاب به البعض الآخر، ومن السهل تعليل حالة الذين لا يصابون به باعتبار الدواء سبباً لذلك» .

بحث الطبيب عن عيني الماركيز لكي يتأكّد من انّه ما زال مستيقظاً وسأله :

-«لماذا كلّ هذا الاهتمام ؟» .

أجاب الماركيز كاذباً:

- « بدافع الشفقة ».

تأمّل من النافذة البحر المتخدّر بسبب ضجر الساعة الرابعة، وانتبه بقلب متضايق إلى عودة طيور السنونو .ما زالت النسمات لم تتحرك . وكانت جماعة من الاطفال تحاول صيد طائر أخبل ضالّ في أحد الشواطئ التي تشبه مستنقعاً وتابع الماركيز الطائر وهو يطير ويهرب ويختفي بين القباب اللامعة للمدينة المحصّنة .

دخلت العربة إلى المكان المسوّر من باب أرض «الهلال»، وتبع «أبرينونثيو» سائق العربة إلى بيته تواكبه جلبة الصنّاع التقليديين . لم تكن العودة سهلة لأنّ «نبتونو» الذي تجاوز عمره الستين عاماً كان متردد الطبع، قصير النظر،وقد إعتاد ترك الحصان يتّخذ طريقه الذي يعرفه خيراً منه . واخيراً وعند باب المنزل ودّعهم «أبرينونثيو» مردّداً قول «هوراتيوس» . فاعتذر له الماركيز قائلاً :«لا أعرف اللاتينيّة».

اضاف «أبرينونثيو» باللاتينيّة طبعاً:

– «وليس لك بها حاجة».

بدا الماركيز متاثّراً جداً إلى درجة أنّ فعلته الأولى بعد عودته إلى المنزل كانت أغرب ما قام به في حياته . لقد أمر«نبتونو » أن يأخذ الحصان الميّت من هضبة «سان لاثارو» ويدفنه في أرض مقدّسة ، وأن يرسل في الصباح الباكر لليوم التالي لـ «أبرينونثيو» افضل حصان في الاصطبل .

بعد السعادة السريعة الزوال الناتجة عن الدواء المسهّل للانتيمون، كانت «برناردا» تستعمل الحقنة الشرجيّة ثلاث مرّات في اليوم لإطفاء

حريق أحشائها ، أو انّها كانت تغطس في ماء ساخن به صابون معطّر ست مرّات يوميّاً بهدف تهدئة أعصابها . لم يبق لديها شيء ممّا كان عندها عندما كانت حديثة الزواج. وعندما كانت تُقدم على مغامرات تجاريّة تقوم بها بإحساس كاهنة . وكان مكسبها كبيراً لغاية تلك الأمسية المنحوسة التي تعرفت فيها على «يهوذا الاسخريوطي» فتمكّنت منها البلوى .

كانت قد عثرت عليه بالصدفة في حظيرة يُعقد فيها سوق اسبوعي، ووجدته يتعارك بيديه وهو عار تقريباً وبلا أيّة حماية مع ثور للمصارعة . كان شديد الروعة والمجازفة لذا فإنّها لم تتمكن من نسيانه. وبعد أيام رأته من جديد في كرنفال بمكان بعيد حضرته متنكرة على شكل شحّاذة، وكانت محاطة بخادماتها اللاتي كنّ يلبسن ملابس الماركيزات، وكنّ مزينات بالقلائد والأساور والأقراط المصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة . كان «يهوذا» في وسط حلقة من الفضوليين ، وكان يرقص مع من تدفع له. تكاثرت النسوة حوله فاضطر إلى وضع نظام او دور لتهدئة رغبات اللاتي كنّ يرغبن في ذلك. سألته «برناردا» عن الثمن ، فاجابها «يهوذا» وهو يرقص:

-«نصف ريال » .

نزعت «برناردا» القناع وقالت له :

-« أسألك عن ثمنك مدى الحياة » .

لاحظ «يهوذا» أن الوجه المكشوف لا يبدو وجه شحّاذة.

إنفصل الراقصان واقترب منها يمشي بخيلاء صبيّ ملاّح لكي تسمع الثمن بوضوح فقال لها :

- « خمسمئة قطعة ذهبية ».

فحصته بنظرة مكّار خبير بالتسعير .

بدا ضخماً وله بشرة شبيهة بجلد الفقمة ، ذا جذع متموّج وخصر ضيّق وساقين طويلتين ويدين ناعمتين لا تفصحان عن مهنته . قدّرت «برناردا» طوله وقالت له :

-« طولك ثمانية أشبار » .

أجابها قائلاً :

-«وثلاث بوصات » .

طلبت منه «برناردا» أن يخفض رأسه ويجعله في مستوى رأسها كي تمتحن أسنانه. فازعجتها رائحة أشبه برائحة النشادر كانت تنبعث من إبطيه . كانت أسنانه سليمة وكاملة وحسنة الترتيب .

قالت له «برناردا»:

- « إنّ صاحبك لن يكون إلاّ مجنوناً إذا فكّر في بيعك بثمن حصان » .

قال لها:

-« انا حرّ وابيع نفسي بنفسي ».

وختم بنبذة خاصة:

-«...أيتها السيدة».

أضافت هي :

-«...الماركيزة».

انحنى احتراماً لها كانحناءة جلساء الملوك ، الأمر الذي أدهشها فاشترته بنصف الثمن الذي طلبه وقالت له :

-«ليس هدفي سوى إمتاع البصر » .

ومع ذلك لم تفكّر في اعتباره عبداً، وسمحت له بالاستمرار مع ثوره في السيرك. أسكنته في حجرة قريبة من حجرتها كانت من قبل مقرّاً للسوّاس ، وانتظرته عارية منذ الليلة الاولى دون ان تقفل مزلاج الباب ، متأكّدة من أنّه سيزورها من غير دعوة . غير إنّها انتظرت أسبوعين دون أن تستطيع النوم بسبب حرائق ورغبات الجسد.

أما هو فبمجرد معرفته بهويّتها ، ورؤيته البيت من الداخل ، وجد نفسه يضع حاجزاً بينه وبينها كمثل أيّ عبد . غير إنّ «برناردا» عندما لم تعد تنتظره واخذت تنام مرتدية قميص نومها وتقفل باب غرفتها بالمزلاج ، فوجئت بدخوله عليها من النافذة . أيقظها جوّ الغرفة الغريب ورائحة العرق الشبيهة بالنشادر . أحسّت بلهاث ثور يبحث عنها على غير يقين في الظلام . شعرت بنار جسده فوقها، وبيدين

ضاغطتين، أمسك بقميص نومها ورفعه إلى عنقها ومزّقه على طوله، وهو يردّد على مسمعها كلمة «عاهرة، عاهرة» . ومنذ تلك الليلة علمت «برناردا» أنها لم تكن تريد عمل أيّ شيء آخر غير هذا طوال حياتها .

جنّت به ، وكانا يذهبان في الليل لحضور رقصات القناديل في الضواحي. كان يلبس لباس الرجال الموقرين بسترته الطويلة وقبّعته المدورة التي اشترتها له «برناردا» حسب ذوقها. اعتادت في البداية التنكر على مختلف الهيئات ، وأخيراً أخذت تظهر بوجهها الحقيقي . أغرقته بالذهب من سلاسل وخواتم وأساور، وجعلته يرصّع أسنانه بالجواهر . إعتقدت مرّة بانّها على وشك الهلاك عندما علمت أنه كان يواقع كلّ من تمرّ في طريقه، لكنها اقتنعت في النهاية بما يتبقى لها منه. حدث ذات مرّة أن دخلت «دومنگا دي أدفينتو» ساعة القيلولة إلى حجرتها ظانّة أن «برناردا» كانت في المعصرة ، ففوجئت برؤيتهما عاريين يتضاجعان على الأرض . إنبهرت الخادمة واحتارت للحظات ويدها على مقبض الباب ، فصرخت بها «برناردا» قائلة :

– « لا تقفي هناك كأنّك ميتة ، اذهبي أو تمرّغي معنا هنا».

ذهبت «دومنگا دي أدفينتو» بعد إغلاق الباب بقوة ، حتى لقد شعرت «برناردا» كأنّ أحداً قد صفعها على وجهها . دعتها في تلك الليلة وهددتها بشديد العقاب اذا تحدّثت او نقلت ما رأته إلى ايّ شخص كان ، فأجابتها الخادمة :

– « لا تقلقي، أيّتها السيّدة البيضاء ، بإمكانك أن تمنعيني ما

تشائين، وليس لي إلاّ أن أنفذ » .

ثمّ ختمت كلماتها قائلة : «إنّ أسوأ ما في الأمر هو أنّك لن تستطيعي منعي عن التفكير» .

عندما علم الماركيز بكلّ ذلك، تصرّف وكأنّه لم يفهم شيئاً. والواقع إنّ «سيرفا ماريا» هي الشيء الوحيد المشترك مما بقي بينه وبين زوجته . ولم يكن يعتبرها ابنة له بل ابنة زوجته وحدها . أمّا «برناردا» فإنّها لم تكن حتّى تفكّر في ذلك . وكانت قد نسيتها إلى درجة أنّها لم تعرفها وظنّتها فتاة أخرى في إحدى المرّات التي رجعت فيها بعد فترة غياب طويلة في المعصرة ، لأنّها وجدتها مختلفة وأكبر ممّا كانت عليه من قبل . نادتها وفحصتها واستجوبتها عن حياتها ، غير إنها لم تردّ عليها ولو بكلمة واحدة .

قالت «برناردا»:

« انّك مثل ابيك بالضبط، لست سوى مسخ ».

وظلت علاقة الاثنين على هذه الحال حتّى يوم عودة الماركيز من مستشفى «أمور دي ديوس» وإبلاغه «برناردا» بقراره الإمساك بيد من حديد شؤون المنزل . وبسبب عجلته وهياجه لم تستطع «برناردا» إجابته .

والشيء الأول الذي قام به هو إعادة الطفلة إلى حجرة نوم جدّتها الماركيزة والتي كانت «برناردا» قد أخرجتها منها قبل ذلك لتنام مع الخدم . كان الازدهار القديم لا يزال على أتمّ حال تحت الغبار

المتراكم : السرير الإمبريالي الذي كان يظنّه الخدم مصنوعاً من الذهب بسبب لمعان نحاسه ؛ ناموسيّة العروس المصنوعة من الشاش، وفساتين القيطان المزركشة، ومغسلة الرخام، والعديد من زجاجات العطر والزينة المرتّبة في نظام عسكريّ فوق مائدة الزينة ، والمرحاض المتنقل، ووعاء البصق، ووعاء التقيؤ الخزفي. وذلك هو العالم الخادع الذي كانت تحلم به تلك العجوز التي أقعدها الروماتيزم ، العالم الذي حلمت به لابنتها التي لم توجد وحفيدتها التي لم ترها قطّ .

في الوقت الذي بدأت فيه الخادمات يعدن الحياة إلى غرفة النوم، ظهر الماركيز مشغولاً آمراً بتنفيذ قوانينه في المنزل .

أذعر الخدم النائمين في ظلال الاقواس، وهدّد بضرب وسجن من يعود منهم إلى قضاء حاجته في الزوايا أو ممارسة لعبة الحظّ في الحجرات المسدودة. لم تكن اوامر الماركيز جديدة لأنّه كان قد تمّ تنفيذها بصرامة أشدّ عندما كانت «برناردا» صاحبة الامر والنهي. وكانت «دومنگا دي أدڤينتو» تنفذها. جعل الماركيز يتبختر علناً ويصرخ بأمره التاريخي :

- « في منزلي لا يمكن عمل أيّ شيء خارج إرادتي» .

غير إنّ «برناردا» عندما استسلمت لاستهلاك الكاكاو وتوفيت « دومنگا دي أدڤينتو» ، عاد العبيد بسريّة تامّة ، بدءاً بالنساء مع اطفالهنّ، للمساعدة في الأعمال الصغيرة ، ثم جاء دور الرجال العاطلين فاسترخوا في الممرات المظلمة منتعشين بجوها الرطب.

وبدافع الرهبة من شبح الفقر والخراب كانت «برناردا» تآمر العبيد بالذهاب للبحث عن لقمة العيش وممارسة الشحاذة في الشوارع. وفي إحدى ازماتها قررت عتقهم جميعاً إلاّ ثلاثة أو أربعة للخدمات المنزلية ، غير إنّ الماركيز اعترض معتبراً ذلك أمراً ظالماً حيث قال :

– «إذا كان عليهم أن يموتوا جوعاً ، فمن الأفضل أن يموتوا هنا، لا في تلك المجاهل ».

لم يرض الماركيز بانصاف الحلول عندما عضّ الكلب «سييرڤا ماريا»، فمنح أحد العبيد، الذي بدا له اكثر سيطرة واشدّ ثقة من غيره ، مسؤوليات كبيرة وزوّده بتعليمات قاسية أثارت «برناردا» . وفي الليلة الاولى عندما كانت الدار تنعم بالنظام لأول مرّة منذ وفاة «دومنگا دي أدڤينتو» ، وجد الماركيز «سييرڤا ماريا» نائمة في كوخ العبيد بين العديد من الشابات السوداوات النائمات في الأراجيح المتقاطعة في مستويات مختلفة . أيقظهنّ جميعاً ليوزع عليهن تعليمات النظام الجديد ، قال لهن.

– « إعتباراً من الآن ستنام الطفلة في المنزل »

وأضاف

– « وليعلم الجميع وفي كلّ المملكة بانّها لا تملك سوى عائلة واحدة ، وهي عائلة من البيض ».

قاومت الطفلة ورفضت عندما حاول أخذها بين ذراعيه للذهاب بها إلى الحجرة. أفهمها بأنّ أوامر الرجال لا بدّ أن تسود في العالم.

وفي حجرة الجدّة وبينما كان يستبدل لها وزرة الكتّان الخاصّة بالعبيد بقميص نوم ، لم تتفوّه ولو بكلمة واحدة . شاهدتهما «برناردا» من الباب، كان الماركيز جالساً على السرير يصارع أزرار قميصه التي ترفض الدخول في العروات الجديدة ، وكانت الطفلة واقفة على قدميها قبالته تنظر اليه نافذة الصبر . لم تستطع «برناردا» قمع نفسها، فقالت له ساخرة :

– «لماذا لا تتزوجان ؟» . وحين وجدت أن الماركيز لم يعر كلماتها اهتماماً أضافت :

– «لن تكون تجارة خاسرة أنْ تلد ماركيزات مولّدات لهنّ قوائم دجاج لبيعهنّ للسيركات» .

كانت هي أيضاً قد تغيّرت نوعاً ما ، فعلى الرغم من شراسة ضحكتها، بدا وجهها أقلّ شعوراً بالمرارة ، وكان في عمق غدرها رواسب من العطف لم ينتبه إليها الماركيز . وما أن شعر الماركيز بابتعادها، حتّى قال للطفلة :

– « ما هي الآّ خنزيرة» .

بدا له أن اهتمامها قد أثير قليلاً فبادرها قائلاً :

– «أتعرفين ماذا تعني كلمة خنزيرة ؟ » .

آملاً أن يسمع منها جواباً ما، غير إنّ «سييرڤا ماريا» لم تفعل ذلك. تركته يضعها في السرير ويريح رأسها على وسادة الريش

ويغطّيها حتّى الركبتين بالشراشف المصنوعة من الخيوط المعطّرة بخشب الصندوق المصنوع من ألواح الأرز ، دون أن ترحمه بنظرة واحدة منها. شعر بنوع من زعزعة الضمير، فسألها .

– «هل تصلّين قبل النوم ؟ » .

لم تكلّف الطفلة نفسها النظر إليه . إضطجعت متخذة شكلاً جنينيّاً كما اعتادت عليه في الأرجوحة ونامت دون أن تودعه. سدّ الماركيز الناموسيّة بحذر تامّ لئلاّ تمتصّ الوطاويط دمها وهي نائمة . كانت الساعة تقارب العاشرة وكان جوق المجنونات لا يطاق في المنزل المحرّر من العبيد المطرودين .

أطلق الماركيز كلاب الحراسة التي خرجت منطلقة نحو حجرة الجدّة تتشمّم صدوع الباب لاهثة . حكّ الماركيز رؤوسها بأنامله وهدأها بالخبر الطيّب :

– « إنّها «سييرڤا ماريا» التي ستكون معنا منذ هذه الليلة ».

نام قليلاً وبشكل غير مريح بسبب المجنونات اللاتي غنّين حتّى الساعة الثانية، والشيء الأول الذي قام به عند نهوضه لدى صياح أوّل ديك ، هو ذهابه إلى حجرة الطفلة التي لم تكن فيها بل في عنبر الخادمات . استيقظت الخادمة النائمة بقربها خائفة .

قالت له الخادمة قبل ان يبادرها بايّ سؤال .

– « لقد جاءت بنفسها، ايّها السيّد ».

وأضافت:

« حتّى إنّني لم أنتبه إلى ذلك ».

كان الماركيز يعلم أن كلامها صادق. إستقصى عمّن كانت تصاحب «سييرڤا ماريا» عندما عضّها الكلب، فاعترفت المولّدة الوحيدة المسمّاة «كارداد ديل كوبري» خائفة بانّها هي التي اصطحبت الطفلة في ذلك اليوم . هدأها الماركيز وقال لها :

– «إهتمّي بها كما لو كنت «دومنگا دي أدڤينتو» .

شرح لها واجباتها، وحذّرها من الانشغال عنها ولو للحظة واحدة، وطلب منها أن تعاملها بحبّ وعطف ولكن من دون لين. والشيء الأهمّ ألاّ تتجاوز حاجز الأسلاك الشائكة الذي أقامه ليفصل بين فناء العبيد وباقي المنزل . وجب عليها أن تزوّده بتقرير شامل مرّتين في اليوم ، عند النهوض صباحاً وقبل النوم ليلاً، دون أن يذكّرها أويطلب منها هو ذلك .

قال لها:

– « انتبهي جيّداً الى ما تفعلين وكيف تفعلينه »

ثم أضاف:

– «أنت الوحيدة المسؤولة عن تنفيذ أوامري هذه » .

في السابعة صباحاً وبعد حبس الكلاب ، ذهب الماركيز إلى دار«أبرينونثيو» . فتح الطبيب باب داره بنفسه لانّه يعيش بلا خدم أو عبيد . وجّه الماركيز لنفسه بعض كلمات العتاب التي ظنّ أنه

يستحقّها قائلاً :

- «ليست هذه ساعة مناسبة للزيارة » .

فتح الطبيب له قلبه شاكراً إيّاه لإرساله الحصان هديّة له . ذهب به من خلال الفناء إلى مكان مسقوف استعمل من قبل كمحلّ حدادة ولم يبق منه سوى حطام الكور . بدا له الحصان ذو العامين المبعد عن وطنه ، منطفئاً . داعبه «أبرينونثيو» بضربات خفيفة من كفّه على خديه، بينما أخذ يهمس على مسمعه وعوداً لا جدوى منها باللغة اللاتينيّة .

حكى الماركيز له قصة دفنهم الحصان الميّت في المزرعة القديمة لمستشفى «أمور دي ديوس» التي تُعدّ أرضاً مقدّسة لأنّها كانت مقبرة للأغنياء أثناء انتشار وباء الكوليرا .

شكره «أبرينونثيو» على ذلك واعتبره فضلاً من الماركيز وتكرّماً زائداً . وبينما شرعا يتحدّثان ، أثار انتباهه بقاء الماركيز على بعد، واعترف بأنّه لم يجرأ مطلقاً على ركوب الخيل ، وقال :

- «خوفي من الخيل كبير كخوفي من الدّجاج » .

فقال له «الماركيز» :

« إنّه لأمر مؤسف، فعدم التواصل مع الخيل قد أخّر الإنسانيّة ، ولو كسرنا هذه الحواجز لتمكنّا من صنع القنطورس».

أضاءت وسط الدار نافذتان مشرعتان على البحر حسب الذوق الداعر لاعزب متقدّم في السن. مُلأت الدار كلها بأرومة البلسم التي

تشير إلى ضرورة الأيمان بقدرة الدواء . كان هناك مكتب مرتّب ودولاب زجاجي مليء بالزجاجات الخزفيّة التي تحمل أسماءً باللاتينية. وفي إحدى الزوايا قبع الخبك الطبّي مهملاً مغطّى بغبار ذهبي اللون. بدت الكتب هي الأكثر بروزاً، وكان معظمها باللاتينيّة تظهر على متونها التواريخ. حشر بعضها في الدواليب والبعض الآخر فوق رفوف مفتوحة ، ووضعت أخرى على الأرض بعناية فائقة. شرع الطبيب يتحرّك بين ممرّات الورق بسهولة أشبه بحركة الخرتيت بين الورود. دهش الماركيز لكثرة الكتب فقال :

- «كلّ ما يمكن أن يُعرف ، لا بدّ موجود في هذه الغرفة » .

قال «أبرينونثيو» مازحاً بلطف:

- « ليس في الكتب ايّ نفع فالحياة عالجت أمراضي التي سببها لي الأطبّاء الأخرون بأدويتهم» .

أبعد قطّاً نائماً فوق الكنبة الرئيسيّة التي كان يجلس عليها عادة ودعا الماركيز للجلوس فوقها. وبينما كان يتحدّث له عن تجاربه الطبيّة قدّم له شراباً مغلياً مع الأعشاب جهزه بنفسه في فرن التنور. إنتبه إلى أن الماركيز لم يعد يهتمّ بمواضيع حديثه. نهض فجأةً وأدار للماركيز ظهره وأخذ ينظر إلى البحر الهائج . وأخيراً وجد الماركيز الشجاعة الكافية للحديث، وإنْ ظل الطبيب يدير له ظهره . همس قائلاً:

- « يا حامل الإجازة ! »

لم يكن «أبرينونثيو» ينتظر منه هذا النداء .

- « أجل »

قال الماركيز بنبرة رسمية:

- « في إطار سرّ المهنة الطبيّة ورغبة مني في أن تكون أنت المسؤول عن هذا الأمر ، أعترف بأنّ ما يقولونه صحيح »،

وأضاف:

- « إنّ الكلب المسعور قد عضّ ابنتي أيضاً» .

نظر إلى الطبيب فوجده محتفظاً بهدوئه.

قال الطبيب:

« أعرف ذلك، وأظنّ أنّك جئت، في ساعة مبكّرة مثل هذه، لهذا السبب».

قال الماركيز:

- « إنّه لكذلك»،

وأعاد سؤاله الذي طرحه من قبلُ حول المعضوض نزيل المستشفى.

« ماذا يمكننا أن نفعل ؟ » .

وبدلاً من إجابته القاسية لليوم السابق ، طلب «أبرينونثيو» مشاهدة «سييرڤا ماريا» .

وهذا هو بالضبط ما أراد الماركيز أن يطلبه من الطبيب . وهكذا اتفقا؛ وكانت العربة تنتظرهما عند الباب .

عندما وصلا إلى المنزْل رأى الماركيز «برناردا» جالسة أمام مائدة الزّينة تمشّط شعرها دون هدف معيّن، وبنفس دلال تلك السنوات البعيدة التي مارسا فيها الجنس آخر مرة، والتي مسحها من

ذاكرته. كان جوّ الحجرة محمّلاً بالعطر الربيعي للصابون الذي تستعمله . رأت زوجها في المرآة فقالت له دون تهكّم:

- « من نكون كي نهدي الخيول للآخرين ؟ » .

تفادى الماركيز كلامها وتناول من فوق السرير غير المرتّب جلبابها الذي اعتادت ارتدائه ورماه فوقها آمراً إياها بلا تهاون:

- « إلبسي هذا الثوب فالطبيب موجود معنا» .

- « عفا اللّه عنّي » .

- « لم يأت لفحصك أنت ، وإنْ كنتِ في حاجة شديدة إلى ذلك، لقد جاء ليرى الطفلة ».

- « ليس ثمة أيّة فائدة من ذلك، إمّا أنْ تموت أو لا تموت ، ولا يوجد احتمال آخر » .

غير إنّ فضولها كان أقوى من لامبالاتها فسألته :

« من هو ؟ » .

أجابها الماركيز :

- « إنّه « أبرينونثيو» .

استنكرت «برناردا» الأمر، فهي تفضّل موت الطفلة وحدها عارية قبل أن تضع شرفها في يديّ يهودي غامض . كان من قبلُ طبيباً في بيت أبويها ، ولكنّهم فصلوه من عمله لأنّه كان يذيع حالة المرضى ويتحدّث عنها بهدف تعظيم تشخيصاته . ردّ عليها الماركيز قائلاً :

- « شئت أم لا فأنت أمّها، وإنْ كان ذلك لا يرضيني ، ولهذا

الحقّ المقدّس أطلب منك أنْ توافقي على فحص الطبيب لها » .

أجابت «برناردا» :

– « بالنسبة لي ، فليعملوا بها ما يشاؤون، فأنا ميّتة » .

على عكس التوقع خضعت الطفلة دون اعتراض وبنفس الفضول الذي كان بالامكان أن تتابع به لعبة ذات زنبرك.

قال لها «أبرينو نثيو»:

– «نحن الأطباء نرى بأيدينا».

بدت الطفلة لاهية وابتسمت للطبيب لأول مرة.

ظهرت سلامة صحتّها جليّة للعيان ، فعلى الرغم من هيئتها الضعيفة ، تمتعت بجسد متناسق مغطّى بزغَب ذهبيّ تصعب رؤيته تقريباً ، ويبشّر ببراعمه الأولى بازدهار سعيد . كانت أسنانها منتظمة تماماً، وعيناها حادتي الإبصار، وقدماها مستويتين، ويداها ماهرتين، وكانت كلّ خصلة من شعرها استهلالاً لحياة طويلة. أجابت بمزاج لطيف وتمكّن كبير على الأسئلة الزائغة ، بحيث وجب معرفتها جيّداً للتأكّد من صدق أو كذب أجوبتها . توترت الطفلة فقط عندما عثر الطبيب على الجرح الملتئم السفلي في كعبها . عالج «أبرينونثيو» المكر بالمكر فسألها :

– « هل سقطتِ ؟ » .

ردّت الطفلة بالإيجاب قائلة دون أن ترمش لها عين:

- « أجل من الأرجوحة » .

أخذ الطبيب يتحدّث إلى نفسه باللاتينيّة فقاطعه الماركيز قائلاً :

- « تحدّث معي بالقشتاليّة القديمة » .

أجابه « أبرينونثيو» :

- « إنّ الامر لا يعنيك لأنّني أفكّر باللاتينيّة».

فرحت «سييرڤا ماريا » لمناورات « أبرينونثيو» ، إلى أن وضع أذنه على صدرها لفحصها . أخذ قلبها ينبض بارتباك وانبعث من بشرتها ندى بلون رصاصيّ بارد. وفاحت منها رائحة بصل خفيفة . بعد الانتهاء من الفحص ربت الطبيب بكفّه على خدّها بودّ وقال لها :

- « إنّك شجاعة جداً » .

وعندما انفرد بالماركيز أخبره أن الطفلة كانت تعرف أن الكلب الذي عضّها مصاب بالسّعار . لم يفهم الماركيز كلامه فردّ عليه بقوله:

- « لقد كذبت عليك كثيراً ، ولكنّها لم تقل لك شيئاً من ذلك».

أجابه الطبيب:

« لم تكن هي ، ايّها السيّد ، بل قلبها هو الذي أخبرني بهذا. لقد بدا لي قلبها وكأنّه ضفدعة سجينة في قفص » .

ماطل الأب في عدّ الكذبات المدهشة الأخرى لابنته ، ولم يكن ذلك بسبب انزعاجه ، بل بدافع من كبرياء الآباء وقال :

- «ربّما ستكون شاعرة » .

– لم يرضَ «أبرينونثيو» بقوله ولم يوافق على كون الكذب شرطاً من شروط الفنّ ، وقال :

– « كلّما كانت الكتابة أكثر شفافيّة. بدا الشعر أكثر صفاء ».

والشيء الوحيد الذي لم يجد له تعليلاً هو رائحة البصل المنبعثة من عرق الطفلة ، وبما أنّه لم يكن يعرف للروائح أيّة صلة بمرض داء الكلب ، فقد استبعد أن تكون تلك الرائحة عرضاً مرضياً . كشفت «كارداد ديل كوبري» للماركيز فيما بعد أن «سييرفا ماريا» كانت قد استسلمت سراً لعلوم وممارسات العبيد ، فجعلوها تمضغ دهان نبتة المانانخو، وسجنوها عارية في مخزن البصل لإبطال أذى الكلب .

لم يُهمل «أبرينونثيو» أيّ تفصيل من تفاصيل السّعار وقال :

– « إنّ أعراض الغثيان الأولى هي أشدّ خطورة وسرعة، وبخاصة إذا كانت العضّة عميقة وقريبة من الدّماغ ».

وتذكّر حالة أحد مرضاه الذي مات بعد خمس سنوات ، ولكنّه لا يزال يشكّ فيما اذا لم يكن قد عانى أو أصيب بعدوى في وقت لاحق ولم ينتبه إليها أحد . والتئام الجرح السريع لا يعني شيئاً ، إذ إنّ الجرح الملتئم يمكن أن يتورّم بعد فترة غير محدّدة وينفتح من جديد ويتقيّح ، يبدأ الاحتضار مرعباً إلى حدّ يحسن معه الموت ، والشيء الوحيد والمشروع الذي يمكن عمله حينذاك هو اللجوء إلى مستشفى «أمور دي ديوس» الذي يوجد فيه سنغاليون ماهرون في التعامل مع الملحدين والمجانين الهائجين . إما إذا لم يتم نقلها إلى المستشفى فإنّ على الماركيز ان يتحمّل بنفسه أمر إدانة الطفلة فيربطها إلى السرير حتى الموت .

قال الطبيب:

« في تاريخ الانسانيّة الطويل لم يعش أيّ مصاب بداء الكلب ليروي تجربته » .

قرّر الماركيز أن يتحمّل المعاناة مهما كانت ثقيلة ، وعليه لابدّ أن تموت الطفلة في بيته. توجه إليه الطبيب بنظرة تنمّ عن الأسى أكثر ممّا تنمّ عن الاحترام، وقال :

– « لم أكن أنتظر عظمة أقلّ من هذه ، ايّها السيّد، ولكني أشك بأن تجد روحك السلوى الكافية لتحمّل كلّ ذلك » .

الحّ من جديد أنّ الحالة ليست خطيرة ، إذ إنّ الجرح بعيد عن المناطق الاشدّ خطورة، ولم يكن هناك من يتذكّرفيما إذا كان الجرح قد نزف ، والاحتمال الاكبر هو انّ «سييرڤا ماريا» لن تصاب بالسّعار .

سأل الماركيز:

– « وإلى أن يحين ذلك، ما الذي يمكن فعله ؟ ».

– «إلى أن يحين ذلك، اعزفوا لها الموسيقى، واملؤوا المنزل بالزهور، واجعلوا العصافير تغرّد، واذهبوا بها لترى الغروب على البحر، وامنحوها كلّ ما يمكن أن يجعلها سعيدة » .

حيّا تحيّة الوداع بحركات من قبعته في الهواء مردّداً كلمات باللاتينيّة، لكنّه ترجمها هذه المرّة على شرف الماركيز وقال :

– «لا يوجد دواء يشفي ما لا تشفيه السعادة » .

(٢)

لم يعرف أحد مطلقاً كيف وصل الماركيز إلى هذه الدرجة من الإهمال، ولا السبب الذي جعله يستمرّ في زواج غير موفّق في الوقت الذي كان بإمكانه أن يعيش بشكل أفضل وأن يقضي فترة ترمّل مُرضية . كان بإمكانه أن يحقّق ما يريده بفعل السلطة الهائلة للماركيز الأول ، والده ، الذي كان سيّد رهبانيّة القديس يعقوب . كان والده نخّاساً ذا مشنقة وسيف ، معلّماً بلا قلب ، لم يتردّد سيّدُه الملك ، في تكريمه وإكرامه، ولم يعاقبه لاقترافه الظلم والجور .

أمّا «إگناثيو» ، وريثه ، فلم تُعرف عنه أيّة صفة بارزة. نشأ منذ صغره تلاحقه دلائل التخلّف العقلي. يتعلّم القراءة والكتابة حتّى سنّ متقدّمة ولم يكن يحبّ احداً. وأوّل خبر مهمّ في حياته سُمع عنه كان عندما علم الاخرون بحبّه في العشرين من عمره لإحدى حبيسات الراعية القدّيسة، التي هوّدته في طفولته بغنائها وصراخها . كان اسمها «دولثي أوليڤيا»، وهي الابنة الوحيدة لعائلة من صنّاع الحُزُم والحبال لدى الملوك. اضطرت إلى تعلّم فنّ صناعة السّروج لكلاّ ينقرض معها تقليد عمّر لما يقارب القرنين من الزمن.في هذا الفضول الغريب

بعملها في حرفة خاصّة بالرجال ، والتي أدت إلى اتّهامها بفقدان عقلها الى درجة انّ الاخرين وجدوا انفسهم مضطرّين على تعليمها عدم اكل فضلاتها الخاصّة. ولولا ذلك لكان في ارتباطها بماركيز مولّد قليل الذكاء فائدة كبرى .

تمتعت « دولثي أوليڤيا» بفطنة حيّة وطبع لطيف ولم يكن من السّهل اكتشاف أنّها كانت مجنونة . ومنذ رؤيته الأولى لها ، ميزها الشابّ «إگناثيو» من خلال جلَبة السطح ، وفي نفس هذا اليوم تفاهما بالإشارات . كانت بارعة في الاعمال الورقيّة وشهيرة ، وكانت ترسل اليه بلاغاتها في حمائم ورقيّة . تعلّم هو القراءة والكتابة بهدف التراسل والتواصل معها وكان ذلك أساس العاطفة المشروعة التي لم يرد أحد فهمها . هدّد الماركيز الاول مستاءً ابنه وطلب منه أن يكذّب علاقته بها علناً .

قال «إگناثيو»:

– «ليس الخبر صحيحاً فحسب بل لديّ أيضاً رخصة لطلب يدها».

وفيما يخصّ الأقاويل التي تتحدّث عن جنونها ، قال :

– «لن يوجد إنسان مجنون لو انّنا رضينا بوجهات نظر المتّهم بالجنون ».

نفاه الاب في مزارعه بأمر منه وهو القادر المتمكن ، تلك القدرة التي لم يستعملها ابنه أبداً . كان ذلك بالنسبة له موتاً في الحياة . كان «إگناثيو» يرهب الحيوانات ويخاف الدجاج ولو بدرجة أقلّ . ومع

ذلك فإنّه لاحظ عن قرب في المزرعة دجاجة حيّة وتصوّرها تزداد حجماً حتى تصبح بحجم بقرة ، ثمّ انتبه إلى أنّ تلك لم تكن سوى تنّين خرافيّ اشدّ رعباً من أيّ كائن أرضيّ أو مائيّ آخر . كان يعرق في برد الظلمات ويستيقظ فجراً وهو يشعر أن الهواء ينقصه في ذلك الصمت الموحش لمرتع الخيل . كان كلب الصيد الذي يحرسه دون أن ترمش له عين قبالة حجرة نومه ، كان يُخيفه أكثر من أيّ خطر آخر. وقد قال مرة: «أحيا فزِعا من الحياة» . اكتسب في منفاه الطابع الحزين والمظهر الصامت والدافع التأمّلي وفتور الهمّة والكلام البطيء والميل الصّوفي الذي بدا عليه وكأنّه على وشك أن يحكم عليه للمكوث في دير منعزل للرّهبان .

وبعد السنة الأولى لنفيه ، استيقظ في أحد الأيام على صخب شديد كأنّه جلَبة الأنهار الفائضة ، فرأى أن حيوانات المزرعة تهجر حظائرها وتعبر الحقول في صمت وتحت نور القمر المكتمل . كانت تُلقي بصمت بكلّ ما كان يُعرقل طريق سيرها وتمشي في خطّ مستقيم عبر المروج ومنابت القصب والوديان والمستنقعات . كانت قطعان الماشية وحيوانات الحمل تتقدّمها ، وبعدها الخنازير والشياه وطيور الحقل ، وكانت تسير في صفّ مشؤوم اختفى في اعماق الليل. وذهبت معها حتّى الطيور ذات الطيران الطويل بما فيها الحمائم ، ذهبت جميعاً ماشية . ولم يبق إلاّ كلب الصيد الذي أصبح في مكانه المعهود قبالة حجرة نوم صاحبه . وكانت هذه بداية الصداقة الإنسانيّة تقريباً التي ربطت بين الماركيز وذلك الكلب وكذا الكلاب الكثيرة الأخرى التي خلفته في البيت .

تنازل الشابّ «إگناثيو»، وهو مستسلم للرعب في المزرعة الميمونة، عن حبّه وخضع لقرار أبيه . أمّا الأب فلم يكتف بتضحية ابنه بحبّه ، بل فرض عليه أيضاً شرطاً دوّنه في الوصيّة ينصّ على وجوب زواجه من وريثة أحد كبار رجال إسبانيا . وهكذا فقد تزوّج وأقيمت حفلة عرس قاصفة من السيّدة «أوليّا دي مندوثا» ، وهي امرأة في غاية الجمال ذات مواهب متعدّدة ومتنوّعة، حافظ عليها عذراء لئلاّ يكرمها حتى ولو بولد من ذريّته . أمّا عدا ذلك ، فانّه استمرّ يعيش على طريقته المعهودة منذ ولادته كمجرّد اعزب بلا جدوى .

أدخلتْه السيّدة « أوليّا دي مندوثا» إلى الحياة ، فكانا يذهبان إلى القداس الأكبر بهدف التظاهر اكثر ممّا هو لممارسة المراسيم الدينيّة . اعتادت أن ترتدي فستاناً اسود واسعاً ، مع رداء لامع وخمار مطرّز ومنشّى مما تلبسه النساء البيضاوات في «قشتالية» ، وكانت تخرج محاطة بموكب من العبدات اللاتي يلبسن الحرير والكثير من الذهب . وبدلاً من الشباشب التي يستعملها عادة حتّى النساء الاكثر تأنّقاً في البيت وكذا للذهاب الى الكنيسة، كانت هي تلبس جزمة طويلة من فروة الماعز مزيّنة بالجواهر .

وعلى عكس الرجال المهمّين الآخرين الذين كانوا يستعملون الشعر المستعار، وهي عادة مهجورة، وكذا أزرار الزمرّد، اعتاد الماركيز أن يلبس ملابس قطنيّة وقلنسوة ليّنة . غير انّه لم يشارك في المناسبات الاجتماعيّة إلاّ مجبراً ، لانّه لم يستطع التغلّب على هول الحياة الاجتماعيّة مطلقاً .

كانت السيْدة «أوليّا» من قبلُ تلميذة لـ «سكارلاتي دومينيكو»

بمدينة «سيگوبيا» ، وقد حازت على إجازة تعليم الموسيقى والغناء في المدارس والأديرة بدرجة شرف . جاءت من هناك ومعها جهاز بيانو غير مركّب ، قامت هي بتركيبه فيما بعد ، إضافة إلى العديد من الآلات الموسيقيّة ذات الاوتار التي كانت تعزف عليها وتعلّم الاخرين بمهارة كبرى . شكّلت مجموعة من المبتدئات اللاتي ملأن امسيات المنزل سعادة وقدسيّة ، عازفات مقطوعات جديدة من ايطاليا وفرنسا واسبانيا ، وبسبب كلّ ذلك فقد قيل أنّها كانت قد أُلهمت بغنائيّة روح القدس .

لم يكن الماركيز يتذوّق الموسيقى ، وكان يقال أن لديه ، على الطريقة الفرنسية ، يديّ فنان وسمع مدفعيّ . غير انّه ومنذ اليوم الذي أخرجوا فيه الآلات الموسيقيّة من أغلفتها، انتبه إلى العود الإيطالي لغرابة حامل اوتاره المضاعَف، وحجم معيار نغمه، وعدد أوتاره، وصفاء صوته . أصرّت السيّدة «أوليّا» أن يعزف هو، وأن يجيد العَزف مثلها . كانا يقضيان الصباح يتمتمان التمرينات تحت أشجار البستان ؛ هي بصبر وحبّ ، وهو بعناد قالع حجر ، إلى أن استسلمت لهما القطعة الموسيقيّة دون ألم .

حسّنت الموسيقى التوافق الزوجي بينهما كثيراً بفضل الخطوة التي خطتها السيّدة «أوليّا» والتي كانت ضروريّة . وفي إحدى الليالي العاصفة ، وربّما كانت تتصنّع الخوف ، ذهبت إلى غرفة زوجها الذي لم تمسّه من قبل أبداً .

قالت له: .

- « إنّني صاحبة نصف هذا السرير ، وجئت لاطالب بحقّي» .

بقي هو على عناده في حين أنّ الزوجة ألحفت في طلبها، مقتنعة بأنّها ستبلغ مرادها بالعقل أو بالقوّة . لم تمنحهما الحياة وقتاً، ففي اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من إحدى السنوات ، وبينما جلسا يعزفان ثنائيّة تحت اشجار البرتقال ، ولأنّ الهواء كان نقياًّ والسماء صافية بلا غيوم، وعندما لمع البرق الذي كاد يعميهما، سمعا دويّ زلزال شوّشهما، وسقطت السيّدة «أوليّا» مصعوقة بالشرارة.

فسّر سكان المدينة المرتعبون تلك المأساة على أنّها بمثابة انفجار للغضب الربّاني بسبب ذنب غير معترف به . أمر الماركيز أن يُجرى لها تأبين مثل تأبين الملكات ، تظهر فيه، اول مرة، الأشرطة السوداء والألوان الحزينة التي يجب أن تلازمها إلى الأبد . وعند عودته من المقبرة فاجأه وابل من الحمائم الورقيّة المتساقطة على أشجار بستان البرتقال. اصطاد واحدة منها بالصدفة وفتحها ثمّ قرأ ما فيها : « تلك الصاعقة كانت لي » .

وقبل انتهاء اليوم التاسع تبرّع للكنيسة بممتلكاته المادّيّة التي حبسها أبوه عليه من قبل : حقل المواشي في «مومپوكس» وآخر في «أياپيل»، وألفا هكتار في «مهاتس» على بعد فرسخين من هنا، مع العديد من قطعان الخيل ، بعضها للركوب وبعضها الآخر للتنزه، ومزرعة فلاحيّة، وأفضل معصرة في ساحل الكاريبي . غير انّ اسطورة ثرائه اعتمدت على ملكيته الكبرى الواسعة والمهملة التي تضيع حدودها الخياليّة في الذاكرة بعيداً عن مستنقعات «لاگواريپا»، ومنحدرات «لاپوريثا» وحتّى مستنقعات «اورابا». والشيء الوحيد

الذي احتفظ به هو المنزل الفخم، وفناء الخدم الذي أُختُصر لأقصى الحدود، وكذا معصرة «مهاتس» .

كلّف «دومنگا دي أدڤينتو» بمسؤوليات المنزل ، وطلب من العجوز «نبتونو» الاستمرار في وظيفته سائقاً للعربة ، وكان قد تمّ تعيينه من قبلُ من طرف الماركيز الاوّل ، وكلّفه أيضاً بالسهر على القليل الباقي من الخيل الخاصّ بالخدمات المنزليّة . ولأوّل مرّة وجد نفسه وحيداً في عتمة المنزل الذي ورثه عن كبار عائلته، واستطاع أن ينام بالكاد في تلك الظلمات بسبب الخوف الفطري للنبلاء المولّدين من أن يصبحوا هدفاً لاغتيال العبيد خلال ساعات النوم . كان يستيقظ مرعوباً دون أن يعلم فيما إذا كانت تلك العيون المحمومة التي تطلّ من فتحات النور عيوناً من هذا العالم أو من العالم الآخر .كان يقترب من الباب ماشياً على حافّة قدميه ويفتحه فجأة ويباغت رجلاً أسود يرقبه من ثقب المفتاح . كان يشعر بهم وهم يمرقون بخطوات نمِر في الممرّات ، عارين ومدهونين بزيت جوز الهند حتى لا يتم الامساك بهم. وبسبب رعبه من ذلك الكمّ الهائل من الخوف ، أمر بإبقاء الأضواء مشتعلة حتى ساعة الشروق. طرد العبيد الذين اخذوا شيئاً فشيئاً بالتسلّط على الأماكن الفارغة وأخذ إلى منزله الكلاب الأولى التي عثر عليها والمدرّبة على فنون القتال .

أغلق البوابة الرئيسيّة وأبعد قطع الأثاث الفرنسيّة التي كانت تنبعث من مخملها رائحة نتنة بسبب الرطوبة . وبيعت فرش الحائط المطرّزة، والأواني الخزفيّة، والساعات الكبيرة ذات الفنّ الرّفيع ، وتم الإحتفاظ بأراجيح الارقطيون المعلقة في حجرات مهجورة للتسلية عن

النفس في أوقات إرتفاع درجات الحرارة. لم يستمر الماركيز بالذهاب إلى القدّاس، أو إلى خلوته المألوفة، ولم يرتد طيلسان الأساقفة في المواكب، أو يحتفل في المناسبات، أو يحترم صيام الأربعين، علماً انّه استمرّ في التزامه بدفع الضرائب المخصّصة للكنيسة. لاذ بالأرجوحة ولجأ، أحياناً، إلى حجرة النوم يجذبه سبات شهر آب (أغسطس). أمّا القيلولة فكانت تحت أشجار البرتقال على الأغلب .درجت المجنونات على رمي ما يزيد في المطبخ من طعام عليه، وكنّ يصرخن مردّدات كلمات فاحشة، غير انّ السلطات عندما عرضت عليه رغبتها في نقل مستشفي الأمراض العقليّة من منطقته اعترض على القرار عرفاناً بجميلهنّ .

كانت «دولثي أوليڤيا» تتسلى بالحنين الى رغبتها التي لم تتحقّق بسبب شعورها بالهزيمة لصدود خطيبها عنها . كانت تهرب كلّما استطاعت من دير القديسة الراعية عبر فتحات سور البستان. لاطفت كلاب الصيد فصارت لها مثل صاحب ومنحتها الطعام بودّ، وكانت تخصّص ساعات نومها للاهتمام بالبيت الذي لم يصبح لها مطلقاً ، بكنسه بأغصان الحبق لجلب الحظّ الحسن ، وتعليق مشاكيل وسلاسل من الثوم في حجرات النوم لطرد البعوض . ماتت «دومنگا دي أدڤينتو» التي لم تكن يدها اليمنى تترك شيئاً للصدفة ، ماتت دون أن تكتشف لماذا تصبح الممرّات أكثر نظافة ممّا تمسي عليه ، وأنّ الاشياء التي ترتّبها بطريقة معيّنة تصبح منتظمة بشكل آخر. وقبل إكماله سنة على ترمّله ، فاجأ الماركيز للمرّة الاولى «دولثي أوليڤيا» وهي تغسل أوعية المطبخ التي بدت لها غير نظيفة بسبب إهمال العبدات .

قال لها:

- «لم اتوقّع أن تجرئي على هذا» .

قالت له :

- « لأنّكَ ما زلت ذلك الشيطان المسكين » .

وهكذا فقد تجدّدت صداقة ممنوعة بدت أشبه بالحبّ ولو لمرّة على الاقلّ. كانا يتحدّثان حتى الشروق بلا آمال ولا أحقاد، كما لو كانا متزوّجين قديمين ومحكومين بالرّتابة . ظنّاً أنّهما سعيدان وربّما كانا فعلاً ، إلى أنْ يقول احدهما كلمة في غير محلّها أو يخطو خطوة أقلّ ممّا ينبغي ، وحينها كانت الليلة تتعفّن في جدال همجي يقلق هدوء كلاب الحراسة. وحينها كان كلّ شيء يعود إلى حالته الأولى وتختفي «دولثي أوليڤيا» عن المنزل لوقت طويل .

إعترف لها الماركيز بأنّ احتقاره الثروات الدنيويّة وتغييرات مزاجه لم تكن نتيجة للتقوى ، بل بسبب الرّعب الذي تمكّن منه لفقدانه المفاجئ للإيمان عندما رأى جثّة زوجته المحترقة بالصاعقة . أرادت «دولثي أوليڤيا» تعزيته ووعدته أن تكون له عبدة خاضعة سواء في المطبخ أو في السّرير ، غير انّه لم يستسلم .

قال لها:

- « لن اتزوّج من جديد مطلقاً ».

لكنه ، وقبل مرور سنة على ذلك، تزوّج سرّاً من «برناردا كابريرا» وهي ابنة رئيس عمّال قديم عمل عند أبيه وبرز واكتسب شهرة في تجارة ما وراء البحار .

تعرّفا على بعضهما عندما كلّفها أبوها أن تذهب إلى منزل الماركيز ببعض السمك المملّح والزيتون الأسود ، اللذان أحبتهما السيّدة «أوليّا» كثيراً . وعندما توفيت هذه، استمرّت هي بإحضار السمك والزيتون للماركيز. وفي إحدى الأمسيات وجدته «برناردا» في أرجوحة البستان، فقرأت له طالعه في باطن كف يده اليسرى . تأثر الماركيز لكثرة ما أصابت من الحقيقة فاستمر يدعوها للحضور في ساعة القيلولة حتى ولو لم يرغب في شراء أيّ شيء . وقد مرّ شهران على ذلك ولم يتخذ الماركيز أيّ قرار في هذا الخصوص. لذا تصرّفت هي بدلاً منه . هجمت عليه بقفزة منها في الارجوحة وقيّدته بأطراف جلبابه، ولم تتركه إلاّ بعد أن استنفدت قواه . حينذاك بعثت فيه لهيباً ومعرفة لم يكن يتخيّلها أو يشكّ في وجودها في ملذاته الهزيلة لمغامرات حبّ فترة عزوبته. وهكذا فقد سلبته بكارته بلا مجد يذكر. كان قد أتمّ الاثنين والخمسين عاماً من عمره، أما هي ففي الثالثة والعشرين ، غير انّ فارق السنّ بين الاثنين لم يعن لأي منهما ايّ ضرر.

استمرّ في مواقعتها ساعة القيلولة على عجل وبلا عاطفة في الظلّ المقدّس لأشجار البرتقال . كانت المجنونات ينشطنهما بأغانيهنّ البذيئة المسموعة من السطح ، وكنّ يحتفلن بانتصاراتهنّ بالتصفيق وكأنهنّ في ملعب . وقبل أن يشعر الماركيز بالمخاطر المحدقة ، أيقظته «برناردا» من سباته مرة وأخبرته بأنها حامل منذ شهرين . ذكّرته بانّها ليست سوداء، بل ابنة هنديّ يتكلم القشتاليّة وامرأة بيضاء من «قشتالية» ، وأنّ الطريقة الوحيدة لترميم الشرف المضاع هو الزواج الرسمي . استمرّ هو في مماطلتها إلى أن حضر أبوها ذات يوم إلى بوابة المنزل في ساعة القيلولة، وهو يحمل بندقيّة من طراز قديم في حمّالة

كتف . كان والدها بطيء الكلام خفيف الإشارات. قام بتسليم سلاحه إلى الماركيز دون أن ينظر إلى وجهه وسأله قائلاً :

– «هل تعرف ما هذه، أيّها السيّد الماركيز ؟».

احتار الماركيز فيما يمكن أن يفعله بالسلاح الذي بين يديه .

قال له :

– « حسب علمي انّها بندقيّة قديمة ».

ثمّ سأله بصدق وفضول :

– « لأيّ شيء تستعملها ؟ » .

– « للدفاع عن نفسي ضدّ القراصنة ، ايّها السيّد ».

قال الهنديّ ذلك دون أن ينظر إلى وجه الماركيز ايضاً .

– « والآن جلبتها عسى أن ترحمني وتقتلني بها ، وإلاّ قتلتك بها».

نظر الماركيز الى وجهه. رأى عينين حزينتين وصامتتين، وفهم ما لم تتحدثا به إليه . أعاد إليه البندقيّة ودعاه إلى السير قُدُماً للاحتفال بالاتّفاق .

أتمّ خوري الكنيسة المجاورة مراسيم الزواج بعد يومين من تلك الحادثة، بحضور والديها وكفلاء الطرفين . وبعد انتهاء المراسيم ظهرت «ساگنتة» من حيث لا يدري أحد وتوّجت العروسين بأكاليل زهور السعادة .

وفي صباح أحد الأيام الذي تساقطت فيه أمطار متأخّرة ، وفي

ظلّ بُرج القوس، وُلدت «سييرڤا ماريا دي تودوس لوس أنخليس»، بعد سبعة شهور من الحمل ولادة عسرة . بدت عديمة اللون والتف الحبل السرّي حول عنقها فأوشك على خنقها.

قالت القابلة:

- «إنّها انثى ،غير انّها لن تعيش».

حينئذ نذرت «دومنگا دي أدڤينتو» للقدّيسين نذراً بأنّ جدائل الفتاة لا تقطع حتى ليلة عرسها إذا عاشت. وقد جاء نذرها في الواقع بعد أن بدأت المولودة بالبكاء . وفي تلك اللحظة أخذت «دومنگا دي أدڤينتو» تغنّي فرحة وتقول :

- «ستكون قدّيسة ! » .

امّا الماركيز الذي رآها بعد غسلها وإلباسها، فقد بدا أقلّ اهتماماً بمستقبلها، وقال :

- « ستكون عاهرة، إذا منحها الخالق الحياة والصحّة».

وكان على الصغيرة، وهي ابنة رجل نبيل وامرأة سوقيّة، أن تعيش طفولة يتيمة، كرهتها أمّها منذ أن ارضعتها للمرّة الوحيدة ورفضت بقاءها عندها خوفاً من أن تقوم بقتلها. قامت «دومنگا دي أدڤينتو» بارضاعها وبتعميدها على الدّين المسيحي، ونذرتها للمعبود اليوروبي «أولوكون» الذي لا يعرف جنسه على وجه الدّقة، والذي يوصف وجهه بأنّه وجه مرعب إلى درجة أنه لا يُرى إلاّ في الأحلام لابساً القناع باستمرار. وبتواجد « سييرڤا ماريا» في فناء العبيد، تعلّمت الرقص قبل تعلّمها الكلام، كما تعلّمت ثلاث لغات إفريقيّة في نفس

الوقت. وتدرّبت على شرب دم الديكة قبل الفطور، والتزحلق بين المسيحيين دون أن يراها أو يشعر بها أحد كما لو كانت كائناً غير ماديّ . ختنتها « دومنگا دي أدڤينتو» في موكب فرح من العبدات السوداوات، والخادمات المخلطات، والساعيات الهنديات اللاتي غسلنها بالماء وطهّرنها بمهرجان «يمايا»، وكنّ يرعين شعرها المندفع والنامي كما لو كان حديقة من الزهور. طال شعرها ووصل إلى خصرها عندما بلغت الخامسة من عمرها . وشيئاً فشيئاً اخذت العبدات يقلدنها العقود المختلفة والخاصّة بالآلهة المتعددين حتى صار عددها ست عشرة قلادة .

كانت «برناردا» قد امسكت بيد من حديد مسؤولية المنزل، في حين انّ الماركيز كان يعيش في خمول في البستان . كان هدفها الأول استرجاع الثروة الموزّعة من طرف الزوج ، محتمية بقدرات وسلطة الماركيز الأول الذي كان في زمنه قد حصل على رخصة لبيع بخمسة آلاف من العبيد في مدّة ثماني سنوات ، لقاء تعهّده باستيراد برميلين من الدقيق لكلّ واحد منهم وفي نفس الوقت . ومن خلال خدعه الكبرى وارتشاء رجال الجمارك، باع الدقيق المتّفق عليه، ولكنّه باع أيضاً ثلاثة آلاف عبد أكثر من حصته عن طريق التهريب، الأمر الذي جعله التاجر الخاصّ الأكثر ثروة في ذلك القرن .

وكانت «برناردا» هي التي وعت بأنّ التجارة الحقيقية لم تكن تجارة العبيد ، بل الاتجار بالدقيق ، مع أنّ تجارته الكبرى ، في الواقع، كمنت في قدرته العظيمة على الاقناع. وبرخصة واحدة لاستيراد ألف عبد خلال أربع سنوات وثلاثة براميل من الدقيق لكلّ واحد منهم،

كسب الرّبح الاكبر في حياته : باع الألف عبد المتّفق عليهم ، ولكنّه بدلاً من الثلاثة آلاف برميل من الدقيق، استورد اثني عشر ألفاً، واعتبر ذلك أكبر تهريب في القرن .

كان يقضي آنذاك نصف وقته في معصرة « مهاتس» نظراً لقربها من النهر الكبير للمجدليّة، حيث أقام مركزاً لإدارة شؤونه، بهدف الاتجار مع المناطق الداخلية للولاية . وكانت تصل إلى منزل الماركيز أخبار متفرّقة عن ازدهاره، ولم يكن يطلع أحداً على حساباته. وكان يبدو، في الأوقات التي يقضيها في المنزل، وكأنّه كلب حراسة سجين. وقد عبّرت «دومنگا دي أدڤينتو» عن ذلك بشكل أفضل عندما قالت:

– « إنّ عجيزته لا تستقرّ على مقعد» .

شغلت «سييرڤا ماريا»، لأول مرة، مكاناً ثابتاً في المنزل، عندما توفيت العبدة المسؤولة عن رعايتها فهيأت لها حجرة النوم الرائعة التي عاشت فيها الماركيزة الأولى . عيّنوا لها مؤدّباً أخذ يلقّنها دروساً في اللغة الإسبانيّة المحكية في شبه الجزيرة، وشيئاً من الحساب والعلوم الطبيعيّة . وحاول تعليمها القراءة والكتابة ولكنّها رفضت حسب قوله لانّها لم تكن تفهم الحروف . وبدأت معلّمة علمانية بتعليمها الموسيقى فابدت الطفلة اهتماما بذلك وذوقاً جميلا ، غير انّها لم تتمتّع بالصبر الكافي لتعلّم العزف على أيّة آلة . تنازلت المعلمة مندهشة وقالت عند توديعها للماركيز :

– «لست أتركها لقصورها ، بل لأنّها ليست من هذا العالم».

كانت «برناردا» تريد أن تهدّئ أحقادها الخاصّة، ولكن بدا عاجلا وبشكل بديهي أن الذنب لم يكن ذنب أية منهما، بل نتاجاً

لطبيعة الاثنتين .أصبحت تعيش بنفس معلّقة منذ ان ظنّت أنها اكتشفت أن الطابع الشجي يغلب على ابنتها . كانت ترتجف لمجرد التفكير، ولو للحظة، بالماضي عندما كانت تحدّق فيها تلك العينين الغامضتين لذلك المخلوق الشاحب ، لابسة التول المهلهل، ذات الجديلة البريّة التي تنسدل إلى باطن ركبتها. كانت تصرخ بها حينذاك : «أيّتها الطفلة، إني امنعكِ من النظر إليّ هكذا! ». وفي لحظات تركيزها في الأمور التجارية ، كانت تشعر عند رقبتها بنفس ذي صفير وكأنّه لأفعى مترقبة ، فكانت تقفز مرتعبة صارخة:

« أيّتها الطفلة، لا تدخلي صامتة» .

ومما عمق خوفها سيل الكلمات بلغة «يوروبا» الذي اعتادت الطفلة أن تصبه عليها. وزاد الأمر سوءاً استيقاظ «برناردا» في الليل فزعة لأنّها تشعر كأنّ احداً ما قد لمسها، وترى الطفلة عادة واقفة عند قدميها تنظر إلى طريقة نومها. ولم تنجح محاولتها وضع جلجل بمعصم الطفلة، لأنّ تكتّم «سييرڤا ماريا» كان يمنعه عن الخشخشة . كانت الأم تقول: «إنّ الشيء الوحيد الذي تملكه هذه المخلوقة من البياض هو لون بشرتها». وكان حقاً أن الطفلة اخترعت اسماً آخر أفريقياً لنفسها، وهو «ماريا ماندنگا» تستعمله بالتناوب مع اسمها الحقيقي.

تأزّمت العلاقة في فجر أحد الأيام بين الأم وابنتها، حين استيقظت «برناردا» وهي تكاد تموت من العطش بسبب افراطها في تناول الكاكاو وعثرت على دمية «سييرڤا ماريا» تطوف في قعر الخابية. لم تبدُ لها في الواقع مجرّد دمية طافية فوق الماء، بل ظنّتها شيئاً مهولاً:

دمية ميّتة ! .

كانت متأكّدة من انّ ذلك رُقية افريقية قامت بها «سييرڤا ماريا» ضدّها، وقرّرت حينذاك بأنّ المنزل لا يمكن أن يتسع لهما معاً. أراد الماركيز أن يتوسّط بينهما بمحاولة خجولة منه، ولكنّها منعته بجفاء وقالت له : « إمّا أنا وإمّا هي»، الشيء الذي جعل «سييرڤا ماريا» تعود إلى سكن العبدات حتى وإنْ كانت امّها في المعصرة . واستمرّت الطفلة على حالتها، غامضة مثلما ولدت ولم تتعلّم القراءة والكتابة مطلقاً.

غير انّ «برناردا» لم تكن أفضل حالاً منها، إذ أنّها حاولت حفظ كلّ ما لدى «يهوذا الاسخريوطي» والتساوي معه، وفي أقلّ من عامين أضاعت سبيل التجارة وسبل الحياة نفسها. كان يُلبسها قناع قرصان نوبيّ، او «آس كوبة» ورق اللعب او الملك الساحر «ملچور» ، وكان يذهب بها إلى الضواحي، وخاصّة عندما كانت ترسو السفن الشراعيّة، وكانت المدينة تنغمس في لهو لمدّة نصف عام. كانا يتجولان في الحانات والمواخير خارج الأسوار المخصّصة للتجار القادمين من «ليما» و «پورتوبيلو» و «هاڤانا» و «بيراكروث»، للتنافس على بيع السلع والبضائع الواردة من جميع أنحاء العالم المكتشف. وفي إحدى الليالي، وفيما هو في غاية السكر في حانة خاصّة بعمال السفن، اقترب «يهودا» من «برناردا» بغموض تام وقال لها :

– « إفتحي فمك واغمضي عينيك» .

فعلت ذلك فدسّ في فمها قطعة من الشكولاته الساحرة لـ «اواكساكا» . عرفت «برناردا» ماهية ما وضع فيها فبصقته، فهي منذ

صغرها تنفر من الكاكاو . أقنعها «يهودا» بأنّ الكاكاو مادة مقدّسة تسعد الحياة، وتنمّي القوى الجسديّة، وترفع المعنويّة، وتقوّي القابليّة الجنسيّة.

أطلقت «برناردا» ضحكة متفجرة وقالت :

- «لو كان الأمر كذلك ، لكانت راهبات «سانتا كلارا» أشدّ قوّة من ثيران المصارعة».

أدمنت على أكل العسل المخمّر الذي اعتادت استهلاكه مع صديقات المدرسة قبل زواجها واستمرّت في استهلاكه، ليس عن طريق الفم فقط، بل عن طريق الحواس الخمس في هواء المعصرة الساخن. تعلّمت مع «يهودا» مضغ التبغ وأوراق التبغ المخلوطة برماد يارومو، كما يفعل هنود «سيرانيڤادا» . جرّبت في الحانات ماريوانا الهند، وتربنتين قبرص، وپيوتي «ريال دي كتورثي» ، ومرّة على الاقلّ جربت أفيون «ناو» بالصين عن طريق المهربين الفليبينيين ؛ بالإضافة إلى ذلك أعطت «يهودا» أذناً صاغية لصالح الكاكاو ، وفضّلته على جميع ما جرّبته من قبل لكثرة حسناته. وتحوّل «يهودا» إلى لص وقوّاد ولوطيّ أحياناً، وكلّ ذلك بدوافع تافهة لأنّه لم ينقصه شيء . وفي ليلة سوداء تعارك، بحضور «برناردا»، مع ثلاثة من عبيد سفن الأسطول، بسبب خصام على ورق اللعب، فقتلوه ضرباً بالكراسي.

لاذت «برناردا» بالمعصرة وانساق المنزل مع التيار ، وإذا كان المنزل قد نجا من الغرق آنذاك ، فالفضل يعود لليد الماهرة لـ «دومنگا دي أدڤينتو» ، التي ربّت «سييرڤا ماريا» حسب إرادة آلهتها.

لم يسمع الماركيز إلاّ القليل عن تدهور حالة الزوجة ، وصلته

من المعصرة أخبار تتحدّث عن عيشها في هذيان دائم وتكلّمها مع نفسها. اختارت من بين العبيد اكثرهم رجولة لقضاء لياليها الماجنة الحمراء مع زميلات المدرسة القديمات . والثروة التي كسبتها بسهولة، أنفقتها بسهولة أكبر ، وصارت محكومة بقِرَب العسل وأكياس الكاكاو التي أخفتها هنا وهناك كي لا تضيع الوقت عندما تلحّ عليها الرغبة . والشيء الأكيد الوحيد الذي بقي لها حينذاك جرّتان مليئتان بالدوبلون ، المسكوكة الذهبية من فئة المئة وفئة الأربعة من الذهب الخالص ، دفنتهما تحت السرير في أيام الخير والرخاء . تدهورت حالتها تدهوراً شديداً إلى درجة أنّ زوجها لم يتعرف عليها عند عودتها من «مهاتس» للمرّة الأخيرة، وبعد ثلاث سنوات متواصلة من الغياب، وقبل أن يعضّ الكلب «سييرڤا ماريا» بوقت طويل .

في أواسط شهر آذار (مارس) بدت مخاطر داء الكلب بعيدة، فقرّر الماركيز شاكراً إصلاح ذات البين بين زوجته وابنته، وحاول غزو قلب «برناردا» بناء على وصفة السعادة التي نصحه بها «أبرينونثيو» . خصّص لها كلّ وقته وحاول أن يتعلّم تمشيط شعرها وضفر جدائلها . حاول تعليمها أن تكون بيضاء في كلّ شيء لترميم أحلامه الخائبة بكونه نبيلاً مولّداً، وأراد أن يغيّر رغباتها وحبّها للمرق المخلّل لحيوان الاغوانة، أو طبيخ حيوان المدرّع . حاول كلّ ذلك معها باستثناء سؤالها عمّا إذا كانت تلك الامور تجعلها سعيدة .

استمرّ «أبرينونثيو» بزيارة المنزل ، ولم يكن من السّهل عليه التفاهم مع الماركيز ، غير انّه كان منجذباً لعدم وعي الماركيز بأنه يعيش في ضاحية من العالم مهدّدة بمحاكم التفتيش . وهكذا فقد انتهت

بالنسبة له الشهور الحارّة ، إذ كان يتكلّم دون أن يسمعه أحد تحت أشجار البرتقال المزهرة، وكان الماركيز يتعفّن في تلك الارجوحة على بعد ألف وثلثمئة فرسخ بحريّ من ملك لم يسمعه قطّ يتلفّظ بأمر تعيينه. وفي إحدى تلك الزيارات قاطعتهما «برناردا» بأنين حزين. أصيب «أبرينونثيو» بالاضطراب وتظاهر الماركيز بعدم السماع ، غير انّ أنينها التالي كاد يمزّق القلب فلم يستطع تجاهله .

قال «أبرينونثيو» :

– « ليكن من يكون صاحب هذه الشكوى فإنّه يستحقّ الإغاثة».

فأجابه الماركيز :

– « إنّها زوجتي من زواجي الثاني» .

قال الطبيب:

– «إنّ لها كبداً مفتّتاً » .

– « وكيف تعرف ذلك ؟ » .

أجاب الطبيب:

– « لانّها تئنّ بفم مفتوح ».

دفع الباب بلا استئذان وحاول رؤية «برناردا» في ظلام الغرفة لكنها لم تكن على السرير . ناداها باسمها فلم تجبه . حينئذ فتح، النافذة وعلى النور اللامع للساعة الرابعة ظهرت أمامه عارية منطرحة على شكل صليب فوق الارض، وهي غارقة في حزن قاتل . كان لون جلدها شاحباً بسبب السويداء الطافحة. رفع رأسها فبهرها لمعان نور

النافذة التي فتحت فجأة، ولم تعرف الطبيب لوقوفه في الجهة المعاكسة للنور . وكفته نظرة واحدة ألقاها عليها ليدرك مصيرها.

قال لها:

«إنّ البومة تنعب لك ، يا ابنتي » .

شرح لها أن في الوقت متسع لانقاذها شرط أن تخضع لعلاج طارئ لتنقية دمها . عرفته «برناردا»، لمّت نفسها قدر المستطاع وصبّت عليه اللعنات .

تحمّل «أبرينونثيو» لعناتها دون تأثر، وعاد إلى اغلاق النافذة . وعند خروجه توقّف عند ارجوحة الماركيز، وحدّد تشخيصه قائلاً :

– «ستموت السيّدة الماركيزة في الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) كحدّ أقصى، هذا إذا لم تشنق نفسها قبل هذا الموعد » .

أجابه الماركيز، دون أن تظهر عليه علامات القلق :

– « الشيء السيّئ الوحيد هو أنّ هذا التاريخ بعيد جداً» .

استمرّ الماركيز بعلاج «سييرڤا ماريا»، وكانا، هو وهي، يريان من هضبة «سان لاثارو» المستنقعات المشؤومة جهة الشرق، وفي الغرب الشمس الملوّنة العظيمة وهي تغرق في المحيط مع لهيبها . سألته عمّا يوجد في الطرف الآخر للبحر فأجابها : «العالم» . ولكلّ إشارة منه كان يجد ردّاً غير منتظر من قبل الطفلة . وفي إحدى الأمسيات شاهدا في الأُفق أشرعة سفن الأُسطول تضربها الريح.

تغيّرت حال المدينة وتسلّى الأب وابنته بمسرح العرائس وببالعي النار، وبالعديد من الأشياء الجديدة للسوق الموسمي الذي أقيم في

الميناء في شهر نيسان (ابريل)، ذاك المبشر بالخير :

تعلّمت «سييرڤا ماريا» من البيض أشياء كثيرة في مدّة شهرين . ولأن الماركيز حاول تغيير ابنته تغير طبعه هو أيضاً، بشكل حاسم، لدرجة أن التحول بدا في طبيعته أكثر مما هو تغيير في مزاجه.

امتلأ المنزل باللّعب : من راقصات وعلب للموسيقى وساعات ميكانيكيّة ممّا كان يُرى في معارض اوروبا . نفض الماركيز الغبار عن العود الإيطالي ، وهذّبه بدأب لا يمكن فهمه إلاّ من باب الحبّ ، وعاد إلى ترديد تلك الأغنيات القديمة المغنّاة بصوت حسن وسمع رديء ، والتي لم يُغيّرها مرور السنين ولا الذكريات المرّة . وسألته هي في تلك الأيام عمّا إذا كان صحيحاً ما تقوله الأغنيات من أن الحبّ يستطيع أن يفعل كلّ شيء .

أجابها:

– « إنّه لكذلك حقاً ، ولكن يحسن بك ألاّ تصدّقي ذلك».

ولفرط سعادة الماركيز بالمستجدات ، بدأ يفكّر برحلة الى اشبيليا كي تنسى « سييرڤا ماريا» آلامها المكتومة ، ولإتمام تربيتها الدنيوية . كان يوم السفر واتجاهه محددين عندما ايقظته «كارداد ديل كوبري» من قيلولته بالنبأ القاسي :

– «بدأت طفلتي المسكينة، ايّها السيّد ، تتحوّل إلى كلب».

نودي على «أبرينونثيو» بشكل طارئ فكذّب الخرافة الشعبيّة التي مفادها انّ المصابين بداء الكَلَب يصبحون في النهاية مثل الحيوان الذي عضّهم. تأكّد انّ الطفلة تعاني من حمّى خفيفة . ومع أنّ الحمّى

تعتبر مرضاً بنفسها وليس عرضاً لأمراض أخرى، لم يستبعد أيّ شيء آخر. حذّر السيّد الحزين أنّ الطفلة ليست في مأمن من الأمراض، لانّ عضّة كلب مصاب بالسّعار، أو غير مصاب به ، فيها من الخطورة ما فيها . وكالعادة فالحلّ الوحيد هو الانتظار . سأله الماركيز :

– «أهذا آخر ما يمكن أن تقوله لي ؟ » .

أجابه الطبيب بنفس أسلوبه اللاذع:

– « إنّ العلم لم يمنحني الوسائل لأقول لك أكثر من هذا ، وإن كنت لا تصدّقني، يبقى لديك حلّ آخر وهو أن تثق بالخالق» .

لم يفهم الماركيز قوله. قال:

– «قسماً كنت اظنّك ملحداً».

فأجابه الطبيب دون أن ينظر إليه:

« حبّذا لو كنت كذلك، أيّها السيّد » .

لم يثق الماركيز بالخالق، بل بكلّ من كان يزوّده ببصيص أمل. كان في المدينة ثلاثة اطبّاء وآخرون من حملة الشهادات، وستّة صيادلة، وأحد عشر حجّاماً، وعدد لا يحصى من الأطبّاء الدجّالين المتحذلقين العاملين في شؤون السّحر ، وذلك على الرّغم من انّ محكمة التفتيش أدانت ألفاً وثلثمئة منهم بأحكام مختلفة في الخمسين سنة الاخيرة ، واعدمت سبعة منهم في المحرقة . فتح طبيب شابّ من «سلامنكا» جرح «سيرڤا ماريا» الملتئم ووضع عليه كمادات كاوية بهدف استخراج الأخلاط الزنخة. وحاول آخر عمل نفس الشيء ولكن باستخراج الدم من ظهرها . وقام حجّام بغسل جرحها ببولها،

وأجبرها حجام آخر على شرب بولها الخاصّ. وخلال أسبوعين تحمّلت الطفلة الاستحمام بماء الأعشاب، والحقنات الشرجيّة الملّينة مرّتين يومياً. وكانت على وشك ان تموت لكثرة إعطائها مشروب الأنتيمون، ومشروبات قاتلة أخرى .

اختفت الحمّى، غير انّ أحداً لم يجرؤ على التصريح بأنّ السعار قد تمّ تفادي خطره. شعرت «سييرڤا ماريا» بقرب هلاكها . قاومت في البداية خيلاءَها ، غير انّها، وبعد مرور أسبوعين، ودون التوصّل إلى نتيجة ، استسلمت لتقرّح حارق في الكعب ، وبدا جلدها مليئاً بالكشوط ولصقات الخردل والدمامل، وعانت معدتها من أشدّ حالات الالتهاب . لقد عانت من كلّ الاعراض : الدوار والتشنّج والارتعاش والهذيان والإسهال في البطن والمثانة، وكانت تتمرّغ فوق الأرض وتعوي من الألم والغضب. وحتى الأطباء الدجالون تركوها لتواجه مصيرها، مقتنعين بأنها مجنونة أو إن الشيطان قد حلّ في جسدها.

كان الماركيز قد فقد كلّ أمل بشفاء ابنته عندما ظهرت «ساگنتا» تحمل مفتاح القديس «هوبيرتو» . عندما تعرّت «ساگنتا» من أرديتها ودهنت جسدها بزيوت الهنود لتدعكه بجسد الطفلة عارية . قاومت البنت بقدميها ويديها على الرغم من ضعفها الشديد، فأخضعتها «ساگنتا» بالقوة. سمعت «برناردا» من غرفتها الصراخ المجنون، وجرت لترى ما الذي يحدث، فوجدت «سييرڤا ماريا» ترفس الأرض برجليها، و «ساگنتا» فوقها تلفها أمواج الجدائل النحاسية، وهي تردّد صلاة القديس «هوبيرتو» . جلدت «برناردا» الاثنتين بحبال الأرجوحة، وهنّ منطرحات على الأرض، بعد أن فاجأتهما على تلك

الحالة. أخذتا تجريان من زاوية إلى أخرى هرباً من الجلد إلى أن أصاب الإرهاق «برناردا».

بعث أسقف الأبرشية السيّد «توريبيو دي كاثيرس إي ڤرتودس»، الذي انزعج من الفضيحة العامة لاختلال «سييرڤا ماريا» وخرفها، بعث للماركيز بدعوة لمقابلته دون تحديد السبب أو التاريخ أو الساعة، الأمر الذي فُهم على أنّه دليل على كون الامر طارئاً ومستعجلاً. تغلّب الماركيز على شكوكه وذهب لمقابلة الأسقف في نفس اليوم دون إعلام مسبّق.

تقلد الأسقف مهامّ وظيفته في الوقت الذي كان فيه الماركيز منعزلاً عن الحياة العامّة، ولم يلتقيا إلاّ نادراً. حكم على الأسقف برداءَة الصحّة، وكان ضخم الجثة بطيء الحركة، يعاني من ربو يعرض إيمانه للامتحان. لم يحضر الكثير من المناسبات العامة ، وصعب على الناس فهم تغيبه عنها، وفي المناسبات القليلة الاخرى التي حضرها، لم يكن فيها قريباً الى قلوب الآخرين ، الأمر الذي جعله يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى كائن غير حقيقي .

كان الماركيز قد رآه من قبل، مرات قليلة، عن بعد، وفي مناسبات عامّة، واحتفظ له بذكرى مصدرها قداس، وهو يلبس الطيلسان محمولاً على نقّالة تشبه المقعد ويرفعه كبار المسؤولين الحكوميين . ومن خلال جسده الضخم وهيبة ملابسه الرسميّة ، بدا للناظر كأنّه شيخ عملاق جبّار، غير أنّ محيّاه الأمرد وقسماته الدقيقة وعينيه الخضراوين كانت توحي بجمال لا عمر له . وقد شعر الناس كأنّهم أمام سحر الحبر الاعظم ، وشعر الذين يعرفونه، عن قرب، بنور

معرفته ووعيه بالسلطة.

كان القصر الذي يسكنه أقدم قصر بالمدينة ، يتألف من طابقين ومساحته شاسعة ، وقد اصابه الخراب. لم يشغل الأسقف غير نصف طابق. جاور القصر الكاتدرائيّة، وامتد بين الاثنين رواق مشترك ذو أقواس داكنة وفناء به جبّ خرِب مختف بين الشجيرات والأعشاب. وبدت واجهته العظيمة المبنيّة بالحجر المنقوش وبواباته المصنوعة من الألواح الخشبيّة الكاملة وعليها أضرار الاهمال.

استقبل شمّاسٌ هنديٌّ الماركيز عند الباب الرئيسيّ . وزّع الماركيز صدقات صغيرة على مجاميع من السائلين الذين كانوا يدبّون في الدهليز ، ودخل إلى الظلّ المنعش للمنزل، في الوقت الذي دقت فيه أجراس الكاتدرائيّة ورجّع صداها في الفناء، وفي أحشاء الماركيز أيضاً. أعلنت الساعة تمام الرابعة مساء . غرق الممرّ الاوسط بالظلام فقبع الشماس، دون أن يراه، حذِراً في كلّ خطوة من التعثّر بتمثال وُضع في غير مكانه، أو حطام ساقط في الطريق . وفي آخر الممرّ بدت قاعة انتظار أكثر أضاءة بسبب النور الداخل من كوّة بالسقف . توقّف الشماس وأشار على الماركيز أن يجلس للانتظار، ثمّ دخل الباب المجاور. بقي الماركيز واقفاً على قدميه. نظر إلى الجدار الرئيسي وتفحص صورة زيتيّة كبيرة لشابّ عسكري يرتدي ملابس الحفلات من ضبّاط الملك . وعندما قرأ اللوحة البرونزية المثبتة على الإطار ، انتبه أن صاحب الصورة هو نفس الأسقف في شبابه.

فتح الشماس الباب ودعاه للدخول. لم يكن الماركيز بحاجة إلى جهد كبير للتعرّف على الأسقف الذي كان عمره يزيد بأربعين عاماً

على عمره في الصورة. بدا أكثر ضخامة وهيبة ممّا قيل عنه، ورغم معاناته من الربو، ومعاناته من الحرارة تساقطت قطرات العرق منه بغزارة. أخذ يتحرّك ببطئ في كرسيّ هزّاز فليبينيّ. حرك مروحة من جريد النخل أمام وجهه، وانحنى جسده إلى الأمام للتنفّس بشكل أفضل. كان يلبس نعلا فلاّحيّاً وقميصاً من الكتّان الخشن الذي حُكّت بعض اطرافه لإفراط في استعمال الصابون . ظهرت حقيقة فقره للعيان من أوّل نظرة. غير انّ الشيء الأكثر إثارة هو صفاء عينيه ، ولم يكن بالإمكان تعليل ذلك إلاّ إذا فُهم الأمر على أنه نتيجة لصفاء الروح. توقّف عن الاهتزاز بمجرّد رؤيته للماركيز عند الباب وأشار له اشارة وديّة بمروحته.

قال للماركيز:

- «تفضّل ، يا «إگناثيو» ، إنّك في بيتك ».

جفّف الماركيز عرق يديه بسرواله وفتح الباب. وجد نفسه في مكان مشرع على الهواء الطلق تحت قمرية من زهر الجريس ونباتات السرخس المعلّقة. من هناك شاهد أبراج جميع الكنائس والقرميد الأحمر للمنازل الرئيسيّة، وأبراج الحمام والبحر المشتعل. مدّ الأسقف يده العسكرية عن قصد فقبّل الماركيز الخاتم .

كان تنفس الأسقف، بسبب علّة الربو، قوياً شاقاً. تخللت جمله زفرات عالية وسعال خشن قصير، ولكن كل ذلك لم يؤثّر على بلاغته. أصبح بينهما تواصل آني سهل، عن شؤون الحياة اليومية وجزئياتها. شكر الماركيز وهو جالس قبالته، وكانت تلك المقدمة أشبه بالسلوى. فوجئا بأجراس الساعة الخامسة . لم تكن دقّات الأجراس

مجرد صوت عاديّ بل ارتجاجاً زعزع نور المساء والحمائم فامتلأت السماء بها.

قال الأسقف:

- « إنّه شيء مفزع ، دقات الساعة تجعل احشائي ترتج مثل زلزال أرضيّ ».

ادهشت هذه الجملة الماركيز لأنّه شعر بنفس هذا الشعور عندما أعلنت الساعة الرابعة ، وبدا الامر بالنسبة للأسقف كأنه توافق طبيعي، وقال :

- «إنّ الافكار حرّة وليست لأحد».

رسم بسباته على الهواء جملة من الدوائر المتواصلة وختم قوله:

- « إنّها تطير هناك مثل الملائكة » .

أحضرت إحدى راهبات الخدمة وعاءً من الفاكهة المقطّعة في النبيذ، ووعاءً من الماء المبخّر الذي ملأ المكان برائحة الدواء. تنشّق الأسقف البخار بعينين مغمضتين ، وعندما صحا من غيبوبته ، بدا شخصاً آخر في أتمّ حالات وعيه وقدرته، وقال للماركيز :

- «لقد دعوناك لأنّنا نعلم حاجتك إلى الخالق، وإن كنت منشغلاً عن ذلك».

فقد صوته نبرته الموسيقيّة، واستعادت عيناه بريقهما الأرضيّ . تناول الماركيز نصف كأس النبيذ في جرعة واحدة للتهيؤ للكلام .

- « ينبغي لسعادتكم أن تعلموا أني منكوب بأكبر مأساة يمكن

أن يتحمّلها إنسان».

قال الماركيز ذلك بتواضع وهدوء مضيفاً :

– « وعليه فقد فقدت الإيمان».

– « انّنا نعلم ذلك ، يا بنيّ »

أجابه الاسقف دون استغراب «وانّى لنا ان نجهل ذلك ! » .

قال ذلك بشيء من السعادة لانّه عندما خدم ضابطاً للملك في المغرب ، فقد إيمانه هو أيضاً. وعندما بلغ العشرين من عمره وجد نفسه وسط معمعان إحدى المعارك.

قال الأسقف:

– «تمكن مني شك مفاجيء بأن الخالق لم يعد موجوداً. لكنني لرعبي انتقلت لحياة عامرة بالصلوات وبالتوبة».

وأضاف:

– « استمريت على تلك الحال إلى أن رحمني الخالق ودلّني على طريق التقوى، وهكذا فإنّ الشيء الجوهريّ ليس هو عدم إيمانك ، بل هو استمرار الخالق بالإيمان بك . وليس في ذلك أيّ شكّ ، لانّه، بمهامّه اللامحدودة، أنار لنا الطريق لنخفف عنك».

أجابه الماركيز :

– « كنت أودّ تحمّل مأساتي في صمت » .

ردّ عليه الأسقف :

– « لم تبلغ مناك في ذلك، إنّه سرّ صارخ . فابنتك المسكينة

تتمرّغ في الأرض فريسة للتشنجات الفاحشة وهي تعوي بلغة عَبَدَة الاوثان ، أليست تلك أعراضاً للحلول الشيطاني ؟ » .

– « ما الذي تريدون قوله ؟ » .

قال الاسقف:

– « من بين المراوغات العديدة للشيطان ليس غريباً أن يتبنّى شكل مرض قذر وينفذ في جسم بريء» .

وأردف: «وعند تواجده داخل الجسم فليس من قوة إنسانيّة بقادرة على إخراجه » .

تحدّث الماركيز عن الجوانب الطبيّة لعضّة الكلب ، غير انّ الأسقف كان يجد الجواب الملائم لصالح طروحاته ، وألقى عليه سؤالاً بديهياً:

– « أتعرف من هو «أبرينونثيو» ؟ » .

أجابه الماركيز :

– «كان أول طبيب شاهد الطفلة » .

قال الاسقف:

– « كنت أودّ أن اسمع منك شخصياً » .

هزّ جلجلاً كان موضوعاً على مقربة منه فظهر في الحين راهب حسن الطلعة، في حدود الثلاثين من عمره، كأنّه جنّي أُطلِق لتوّه من قمقمه. قدّمه الأسقف للماركيز باسم الأب «كايتانو دي لاورا»، وأمره بالجلوس. كان الراهب يرتدي جلباباً خفيفاً للمنزل لتحمّل

الحرارة، ونعلاً شبيهاً بنعل الأسقف . كان حاداً وشاحباً ، ذا عينين تمتازان بالحيوية، وشعر شديد السواد، وخصلة بيضاء تنحدر على جبينه .

لم يدل تنفّسه السريع ويداه المحمومتان على كونه رجلاً سعيداً .

سأله الأسقف :

– « ما الذي نعرفه عن «أبرينونثيو» ؟ » .

لم يكن الاب «دي لاورا» بحاجة للتفكير بالأمر. فقال كما لو كان يتلفّظ الاسم :

– « أبرينونثيو دي سابريرا كاو» .

وعلى الفور توجّه الأسقف إلى الماركيز :

– « هل انتبهت ، أيّها السيّد الماركيز ، بأنّ اللقب الأخير يعني كلباً في لغة البرتغاليين ؟ » .

وفي الحقيقة فانّه ليس من المعروف اذا كان ذلك هو اسمه الحقيقي حسبما قال «دي لاورا» . وحسب ملفّات محكمة التفتيش ، فهو يهودي برتغالي تمّ طرده من شبه الجزيرة، فظلّ فيها بحماية أحد الحكام ، عرفاناً بجميل الطبيب الذي شفى له مهراً بمياه «توورباكو» المطهّرة . تحدّث عن وصفاته الطبيّة الساحرة وتبجّحه في تكهّن ساعة الموت، وعن لواطيته المحتملة، وعن قراءاته الإباحيّة وحياته البعيدة عن الخالق . ومع ذلك فإنّ التهمة الوحيدة التي وجهت إليه ، هي بعثُه من الموت لخيّاط ورقّاع من «ختسيماني» . تمكنوا من سماع شهادات جادّة عن انّ الميت كان قد كُفّن ووضع في تابوته عندما أمره

«أبرينونثيو» بالنهوض . ومن حسن الحظّ أكّد المبعَث نفسه لمحكمة التفتيش أنّه لم يفقد وعيه ولو للحظة . «أنقذه من المحرقة » قال «دي لاورا» . واخيراً ذكر حادث الحصان الميّت على هضبة «سان لاثارو» المدفون في أرض مقدّسة .

تدخّل الماركيز قائلاً :

– «كان يحبّه وكأنّه كائن إنسانيّ » .

قال دي لاروا:

– « كان هذا إهانة لمعتقداتنا ، ايّها السيّد الماركيز، خيول عمرها مئة عام ولا صلة لها بالخالق » .

تمكّن القلق من الماركيز لأنّ مُزحةً خاصّة كانت قد وصلت إلى محاكم التفتيش . حاول القيام بدفاع خجول فقال :

– «أبرينونثيو» بذيء اللسان ، غير انّي أظنّ بأنّ ثمة مسافة بين سلاطة اللسان والإلحاد».

وكاد الجدال يصبح مرّاً وطويلاً لولا انّ الاسقف دلّهم على الطريق الضائع، قائلاً :

– « ليقل الأطبّاء ما يشاؤون ، إلا إن داء الكَلَب في الإنسان ليس إلاّ مناورة من مناورات العدوّ » .

لم يفهم الماركيز كلامه، ففسّر الأسقف حديثه بشكل دراميّ شديد ، بدا له كأنّه مقدمة لحكم بالحرق الأزلي . وختم قوله :

– «لحسن الحظ، ورغم أن جسد ابنتك الآن في عداد المفقودات، فإن الخالق قد منحنا الوسائل لإنقاذ روحها » .

احتلّت ظلمات المغرب العالم ، ورأى الماركيز الشهاب الاوّل في السماء البنفسجيّة، وفكّر في ابنته التي تجلس الآن وحيدة في المنزل الكئيب ، وتسحل قدميها اللتين عوملتا بقسوة بسبب سوء أفعال الأطبّاء الدجالين. سأل بتواضعه المعهود :

- « ما الذي عليّ أن افعلَه ؟ » .

شرح الاسقف له ذلك بالتفصيل، وأذِنَ له باستعمال اسمه في كلّ إجراء، وبخاصّة في دير «سانتا كلارا» ، حيث كان ينبغي له أن يُدخل الطفلة في أسرع وقت . وختم كلامه قائلاً :

- « اتركها في أيدينا وعلى الربّ الباقي » .

ودّع الماركيز الحاضرين مهموماً أكثر ممّا كان عليه عند قدومه . ومن نافذة العربة تأمّل الشوارع المقفرة، والأطفال السابحين في البِرَك، والقمامة التي نثرتها الدجاج . وعند منعطف الزاوية رأى البحر على حالته الدائمة، وألمت به الشكوك .

وصل الماركيز إلى المنزل مع عتمة صلوات التبشير ، ولاوّل مرّة بعد وفاة السيّدة «أوليّا» صلّى بصوت مرتفع : «ملاك الربّ أعلم مريم». ارتفعت أوتار العود في الظلمات وكأنّها تخرج من صهريج . تلمّس الماركيز اتّجاه الموسيقى حتى حجرة نوم ابنته . كانت جالسة على كرسي خوان الزينة، تلبس الغلالة البيضاء، وجدائلها مطلقة نازلة إلى الأرض. كانت تعزف قطعة اوليّة تعلمتها معه. لم يكن يصدّق أن تكون هي نفسها التي تركها وسط النهار خائرة بفعل قسوة الأطباء الدجّالين ، إلاّ إذا كانت المعجزة قد حلّت . كان وهماً آنياً ، إذ لم تكد «سييرڤا ماريا» تنتبه إلى وصوله حتّى تركت العزف واستولى عليها الكدر .

صحبها طوال الليل، وساعدها في طقوس النوم بتهوّر والد. ألبسها قميص نومها معكوساً فاضطرّت إلى خلعه وارتدائه من جديد. تلك اوّل مرّة يراها عارية ، وتألّم لرؤيته جانبيها شديدي الالتهاب، وثدييها الشبيهين بزرّين، وزغبها الناعم. أحاطت كعبها الملتهب هالة مشتعلة. وفيما هو يساعدها على الرقود، بدأت الطفلة تتألّم لوحدها وتئنّ بصوت لا يكاد يُسمع. ارتعد لشكه بأنّه كان يساعدها على الموت .

شعر بالحاجة إلى الصلاة لأوّل مرّة منذ فقدانه الإيمان . ذهب الى المصلّى محاولاً بكلّ قواه استرجاع الاله الذي تخلّى عنه ، ولكن من دون جدوى : الإلحاد يقاوم أكثر من الإيمان لأن الأحاسيس تعززه. سمع الطفلة تسعل عدّة مرّات عند نسمات الفجر، فذهب إلى غرفة نومها. في طريقه إليها وجد باب حجرة « برناردا» مواربًا. دفع الباب بتأثير من شكوكه فوجدها نائمة على وجهها على الأرض تشخر شخيراً مدوّياً . وقف الماركيز بالباب ماسكاً مقبضه ولم يوقظها، ولكنّه خاطب نفسه قائلاً : « حياتك فداء لحياتها ». غير أنّه صحّح كلامه على الفور وقال : «حياتنا المزرية، نحن الاثنين، فداء لحياتها . اللّعنة ! » .

كانت الطفلة نائمة، ورآها الماركيز ذاوية دون حراك. تساءل فيما إذا كان يفضّل رؤيتها ميّتة، او خاضعة لعذاب داء الكَلَب . عدّل لها الناموسيّة كي لا تمتصّ دماءها الوطاويط، وغطّاها لئلاّ تستمرّ في سعالها. بقي ساهراً عند سريرها يشعر بلذّة جديدة بحبّها الذي لم يعرف له شبيهاً في حياته . وفي تلك الساعة اتّخذ قراره بشأنها دون أن يستشير الخالقَ أو أيّ أحد آخر . عند الساعة الرابعة وعندما فتحت

«سيرڤا ماريا» عينيها وجدته جالساً بجانب السرير .

قال لها الماركيز:

- « حلّت ساعة ذهابنا» .

نهضت الطفلة دون أن تطلب ايّ تفسير. ساعدها الماركيز في ارتداء ملابسها للمناسبة . بحث في الصندوق عن شباشب من المخمل لئلاّ يقسو الجلد المقوّى لكعب الجزمة على كعبها المصاب، عثر على ثوب خاصّ بالحفلات دون عناء ، وكان ثوباً لأمّها في طفولتها . بدا الثوب جعداً فاقداً بريقه الأصلي بفعل الزمن . كان واضحاً عليه عدم استعماله لأكثر من مرّة. ألبسه الماركيز لـ «سيرڤا ماريا»، بعد حوالي قرن من الزمن، وعلّق في رقبتها القلائد الدينيّة، ووشاح الراهبات للغطاس. كان ضيّقاً عليها نوعاً ما ممّا زاد الشعور بقدمه . وألبسها قبّعةً عثر عليها في الصندوق لم تتوافق أشرطتها الملونة مع الثوب. والمهمّ انّها كانت على قياسها بالضبط . وأخيراً هيّأ لها حقيبة يدويّة وضع داخلها قميص نوم ومشط ذي أسنان متقاربة قادرة حتى على استخراج بيوض القمل، كما وضع كتاباً صغيراً بمفاصل ذهبية وأغلفة صدفية امتلكته الجدة ذات يوم. كان اليوم يوم أحد السّعف فذهب الماركيز مع «سيرڤا ماريا» إلى صلاة الساعة الخامسة، واستلمت هي، متشجعة، لسعفة المباركة دون أن تعرف السبب. وعند الخروج شاهدا الشروق من نافذة العربة. كان الماركيز يجلس على المقعد الرئيسي ويضع الحقيبة على ركبتيه، أما الطفلة فجلست قبالته رابطة الجاش تنظر إلى الشوارع الأخيرة التي عرفتها خلال سنوات عمرها الاثنتي عشرة . لم يثر كلّ ذلك فضولها لتسأل عن الجهة التي يذهبون إليها. وبعد أن

ألبسوها في مثل تلك الساعة المبكرة لباساً كلباس الملكة «خوانا المجنونة» ملكة «قشتالية»، وابنة «الملوك الكاثوليك» ، وجعلوها تعتمر قبعةً شبيهةً بقبعة العاهرات. وبعد تفكير طويل سألها الماركيز :

– « هل تعرفين من هو الخالق ؟ » .

نفضت الطفلة رأسها نافية معرفتها.

كانت السماء غائمة ترعد وتبرق بعيداً في الافق ، والبحر هائجاً. وعند إحدى المنعطفات بدا لهما دير «سانتا كلارا» أبيض منعزلاً بطوابقه الثلاثة وشمسيات نوافذه الزرقاء المطلّة على مزبلة الشاطئ . أشار إليه الماركيز بسبابته وقال : «إنّه هناك» ، ثمّ أشار إلى يساره وأضاف : «سترين البحر من النوافذ في كلّ الاوقات ». وبما انّ الطفلة لم تهتمّ بما سمعت أوضح لها الماركيز ما سيكون عليه مصيرها.

– « ستذهبين لبعض الأيام لتروّحي عن نفسك مع الأخوات راهبات «سانتا كلارا» .

ولأن ذلك اليوم كان يوم أحد، وقف عند الباب الدوّار شحّاذون أكثر من العادة. كان بعضهم مصاباً بالجذام فجاؤوا ليتنافسوا مع الآخرين على بقايا الأطعمة. جروا جميعاً مادّين أيديهم إلى الماركيز. وزّع عليهم صدقات ضئيلة بشكل متساوٍ حتى نفدت المسكوكات التي حملها. رأته راهبة عند البوّابة براياته السوداء، ورأت الطفلة تلبس لباس الملكات، ففتحت الطريق لاستقبالهما .

شرح الماركيز لها أمر الأسقف بإدخال «سييرڤا ماريا» إلى الدير. لم تشكّ راهبة البوّابة في قوله لطريقته في التحدّث إليها. فحصت

الراهبة مظهر الطفلة ونزعت قبّعتها قائلة :

- « في هذا المكان يُمنع لبس القبّعات » .

واحتفظت بالقبعة. أُراد الماركيز أن يعطيها الحقيبة ، ولكنّها امتنعت عن استلامها قائلة :

- « لن تحتاج إلى أيّ شيء هنا » .

انحلّت جدائلها المربوطة بشكل رديء، وانطلقت هابطة لتصل إلى الأرض تقريباً. لم تصدّق راهبة البوابة أن شعرها طبيعيّ . حاول الماركيز ربطه غير انّها أبعدته وربطت الشعر بنفسها بمهارة أدهشت الراهبة .

قالت الراهبة:

- « لا بدّ من قطعه » .

قال الماركيز:

« إنّه نذر للسيّدة العذراء ولن يقصّ إلاّ ليلة عرسها ».

إنحنت الراهبة موافقة على هذا التعليل، وأمسكت الطفلة من يدها من غير أن تترك لها وقتاً للوداع، وعبرت بها من خلال البوابة . وبما انّ كعب الطفلة آلمها عند المشي، خلعت شبشبها الأيسر . رأها الماركيز تبتعد وهي تعرج بقدمها الحافية وبيدها الشبشب. إنتظر، دون جدوى، لحظة نادرة من الرحمة عسى أن تعود للنظر إليه . وكانت ذكراه الأخيرة عنها لحظة تجاوزها الدهليز المؤدي إلى الحديقة، وهي تسحل قدمها المتألمة مختفيةً في سرادق المدفونات أحياء .

(٣)

دير «سانتا كلارا» عبارة عن بناء مربع يواجه البحر. بني من ثلاثة طوابق ، نوافذها متشابهة، ورواق ذي أقواس منحنية يحيط بحديقة بريّة كثيبة. اخترق طريقاً حجرياً يمرّ بين شجيرات الموز ونباتات السرخس المتسلقة البريّة، ونخلة رشيقة نمت وتجاوز ارتفاعها ارتفاع السطح بحثاً عن النّور، وشجرة ضخمة تعلقت بأغصانها نباتات الفنلاّ المتسلقة، وأسلاك من نباتات السحلب. ركدت تحت الشجرة بركة ماء فاسد محاطة بإطار حديدي صدئ، وهناك كانت الببغاوات الأسيرة تثبّت حبالها التي تصنعها على شاكلة حبال السيرك.

قُسّمت الحديقة البناء إلى قسمين مختلفين . ففي جهة اليمين انتصبت الطوابق الثلاثة للمدفونات أحياء اللاتي لا يكاد يزعجهنّ غير صوت أمواج الجرف، والصلوات والأناشيد في الساعات الكنسيّة المحددّة. ويتصل هذا الجزء بالمصلّى عبر باب داخلي لكي تستطيع الراهبات المنعزلات الدخول إلى الجوقة دون المرور بالصحن العام، وسماع صلوات القدّاس والغناء من وراء مشربيّة تسمح لهنّ برؤية الحاضرين دون أن يروهنّ. أمّا النقوش والزخارف اليدويّة المعمولة في

الاخشاب الكريمة التي تزيّن سقوف الدير كلّه فقد نقشها وزخرفها حرفي إسبانيّ خصّص لها نصف حياته مشترطاً أن يُدفن عند وفاته في كوّة بالمذبح الأكبر . وبالفعل دفن هناك وزاحم، وراء بلاط المرمر، رهبان وأساقفة قرنين من الزمان تقريباً ، وبينهم ناس مهمّين آخرين .

عندما دخلت «سييرڤا ماريا» الدير بلغ عدد الراهبات المنعزلات اثنتين وثمانين من الإسبانيات، وكلّهنّ ذوات أعمال محدّدة، وستاً وثلاثين من المولّدات، من كبار العوائل بنيابة المملكة. بعد نذر أنفسهنّ للفقر والكتمان والعفّة ، اقتصر اتّصالهنّ الوحيد بالخارج على زائرات قليلات يستقبلنهن في غرفة المحادثة المعزولة بمشربيات خشبيّة تسمح بمرور الصوت، ولا تبيح دخول الضوء . حاذت هذه الغرفة الباب الدوّار، وكان استعمالها منتظماً مقيّداً غير ممكن إلاّ بحضور شخص يسمع المحادثة .

إلى يسار الحديقة انتصبت وجميع الورشات التي ضمت خليطاً من الناس: الراهبات المبتدئات، ومعلمات الصناعات اليدوية . أُلحق إلى ذلك بيت الخدمة، بمطبخه الضخم، ومواقده الحطبية، وملحمته، وفرنه الكبير للخبز . وفي العمق عمر حوش لغرف الغسيل التي سكنها العديد من عائلات العبيد. ثم تأتي الاصطبلات وحظيرة الماعز وزريبة الخنازير والبستان وخلايا النحل؛ فأهل الدير يربّون ويزرعون كلّ ما هم في حاجة إليه للتمتّع بحياة طيّبة .

وفي نهاية كلّ ذلك، وفي النقطة الأشدّ بعداً عن رقابة الخالق ، امتد سرادق منعزل تمّ استخدامه لمدّة ثمانية وستّين عاماً كسجن لمحكمة التفتيش ، ولا يزال سجناً للراهبات الضّالات. في الزنزانة الأخيرة لهذا

الجانب المنسيّ تمّ سجن «سييرڤا ماريا» بعد ثلاثة وتسعين يوماً من تعرّضها لعضّة الكلب دون أن تظهر عليها أعراض داء الكَلَب .

التقت راهبة البوابة، التي سارت بـ «سييرڤا ماريا» ممسكة بيدها، التقت في آخر الممرّ براهبة مبتدئة متجهة نحو المطبخ، وطلبت منها أن تذهب بالطفلة إلى رئيسة الدير . ظنّت الراهبة أن ليس من المنطق أن تخضع طفلة شاحبة حسنة الملبس لضوضاء الخدمة، فتركتها جالسة على مصطبة حجريّة بالحديقة لتعود إليها فيما بعد، غير انّها نسيتها عند عودتها .

عند مرور اثنتين من الراهبات المبتدئات أُعجبتا بقلائد وخواتم الطفلة فسألتاها عمّن تكون. لم تجبهما. سألتاها إن كانت تعرف الإسبانية ، فلم تجب أيضاً، وكأنما كانتا تتحدثان إلى شخص ميت.

قالت الراهبة الأكثر شباباً:

- « إنّها خرساء طرشاء » .

قالت الاخرى :

- « أو إنّها ألمانيّة» .

بدأت الراهبة الاكثر شباباً تُعاملها كأنّها كائن تنقصه الحواس الخمس. أطلقت جديلتها الملفوفة حول عنقها وأخذت تقيسها بالأشبار: « أربعة أشبار تقريباً»، قالت ذلك مقتنعة أنّ الطفلة لم تكن تسمعها . أخذت تعبث بها، غير انّ «سييرڤا ماريا» أخافتها بنظرة منها. حدّقت الراهبة فيها وأخرجت لها لسانها وقالت لها:

- « إنّ لكِ عيني شيطان».

نزعت من اصبع الطفلة خاتماً دون مقاومة، ولكنّ عندما حاولت الراهبة الثانية سلبها قلائدها تقلّبت وهاجت مثل أفعى، وعضّتها في يدها عضّة آنيّة وصائبة، فجرت الراهبة لتغسل الدم عن يدها.

عندما بدأ غناء القدّاس الثالث، نهضت «سيرڤا ماريا» لتشرب الماء من البركة، إلاّ إنّها عادت إلى المصطبة خائفة دون أن تشرب. ورجعت من جديد حين انتبهت إلى أنّ الاصوات لم تكن إلا أناشيد الراهبات. أزالت طُفاحة أوراق متعفّنة بضربة ماهرة من يدها، ثم شكلت يدها وعاءً شربت به حتى الارتواء دون أن تزيل الديدان من الماء. بعد ذلك بالت خلف الشجرة وهي تجلس القرفصاء، وتحمل بيدها عصاً جاهزة للدفاع عن نفسها ضدّ الحيوانات المتعسّفة والاشخاص المسمومين ، تماماً كما علّمتها «دومنگا دي أدڤينتو» .

بعد ذلك بقليل مرّت بها عبدتان سوداوان فتعرفتا على القلائد المقدسة وتحدّثتا معها بلغة «يوروبا» . أجابتهما الطفلة متحمّسة بنفس اللغة ، وبما أن أحداً لم يعرف سبب وجودها ، أخذت العبدتان الطفلة إلى المطبخ الصاخب ، وهناك استقبلها الخدم بصخب. انتبه أحدهم الى جرح كعبها فأراد أن يعرف سببه . قالت: «جرحتني أمّي بالسكّين». ولأولئك اللواتي سألنها عن اسمها أعطتهنّ اسمها الثاني كسوداء «ماريا ماندونگا» .

استرجعت في ذلك المكان حياتها المألوفة فوراً. ساعدت في ذبح جدي كان يقاوم الموت . أخرجت عينيه وقطعت خصيتيه، فتلك الأجزاء تعجبها أكثر من غيرها. لعبت لعبة الشياطين مع البالغين في المطبخ، ومع الأطفال في الحوش وغلبتهم جميعاً . غنّت بلغة «يوروبا»،

و«كونكو»، و «ماندنكا» ، وحتى الذين لم يكونوا يفهمونها استمعوا إليها غارقين في دهشتهم .

عند الغداء تناولت صحناً فيه خصيتا الجدي وعيناه ، مطبوخة بشحم الخنزير ومتبّلة بتوابل حادّة .

في تلك الساعة عرف الدير كلّه بوجود الطفلة، باستثناء «خوسيفينا ميراندا» رئيسة الدير. و«خوسيفينا» هذه امرأة نحيلة ورثت ضيق أفقها عن عائلتها، وقد تعلّمت في «بورگوس» في ظلّ محاكم التفتيش . أمّا موهبتها بالأمر والنهي وتحيّزها الشديد ، فلم يكن مصدره إلاّ ذاتها. كانت لها نائبتان كفوءتان ، غير انّها لم تكن في الواقع تحتاج إليهما ، لانّها كانت تقوم بجميع الأعمال دون مساعدة أحد .

كانت تحقد على الأسقفيّة المحليّة، وقد بدأ هذا الحقد منذ مئة عام تقريباً، أي قبل ولادتها. والسبب الأول لحقدها، كما هي الحال في كبار خصومات التاريخ، خلاف بسيط نشأ حول شؤون ماليّة وشرعية بين الراهبات الكلاريسات والأسقف الفرانثيسكاني. ورغم تصلّب الأسقف حصلت الراهبات على دعم الحكومة المدنيّة . وكانت هذه بداية حرب أصبحت في بعض الأوقات حرب الجميع ضدّ الجميع .

وبدعم من جماعات دينية أخرى ، ضرب الأسقف الحصار على الدير بهدف إخضاعه. عمل على تجويع أهل الدير وأصدر أمره بوقف جميع الخدمات الدينية بالمدينة حتى إشعار آخر . انقسم السكّان إلى شيع وأحزاب، وتواجه المسؤولون المدنيون والدينيون مدعومين بهذا الطرف أو ذاك. وعلى الرّغم من ذلك ، تمكنت الراهبات الكلاريسات من الاستمرار بالحياة، وبقين جاهزات للمخاصمة حتى

بعد ستّة أشهر من بدء الحصار. استمرت مقاومتهن إلى أنْ تمّ اكتشاف نفق كان أنصارهنّ يزودونهنّ عبره بما يحتجن إليه. وعند ذاك تمكّن الفرانثيسكانيون، بدعم من الحاكم الجديد، من السيطرة على الجزء المنعزل من دير «سانتا كلارا»، وفرّقوا الراهبات .

مرّ عشرون عاماً قبل أن تهدأ النفوس، وتعود الكلاريسات إلى الدير الموحش. غير انّه، وبعد مرور قرن من الزمان، كانت «خوسيفينا ميراندا» لا تزال تغلي على نار أحقادها الهادئة . لقّنت حقدها ذاك للمبتدئات وزرعته في أحشائهنّ أكثر ممّا في قلوبهنّ. ومنذ البداية جسّدت جميع الذنوب بشخص الأسقف «دي كاثيرس إي ڤرتودس» وبجميع ما يتعلّق به . وهكذا بدا ردّ فعلها معروفاً عندما أُخبرت بنبأ قرار الأسقف إدخال ابنة الماركيز، ذات الاثني عشر عاماً ، والتي تعاني من أعراض مميتة للحلول الشيطاني، إلى الديمه. لما عرفت النبأ طرحت سؤالاً واحداً فقط: «وهل يوجد ماركيز بهذا الاسم ؟ » . ألقت سؤالها المسموم لسببين: أولهما لأن الأمر يتعلق بالأسقف ، وثانيهما رفضها الدائم لشرعية طبقة النبلاء المولّدين الذين كانت تسمّيهم «نبلاء المزازيب» .

لما حلّت ساعة الغداء ، لم تكن بعدُ قد عثرت على «سييرڤا ماريا» في الدير . كانت راهبة البوابة قد أخبرت إحدى مساعدات الرئيسة بأنّ رجلاً يلبس ملابس الحداد سلّمها عند الشروق طفلة شقراء تلبس لباس الملكات ، غير انّها لم تدر ما شأنها ، لانّها وصلت بالضبط في ساعة توزيع شوربة المنيهوت على الشحاذين المتنافسين يوم احد السعف. وكبرهان على صدق قولها ، سلّمتها القبعة ذات الشرائط

الملونة، أطلعت المساعدة رئيسة الدير على القبعة فلم تشك فيمن تكون صاحبتها. أمسكت بالقبعة بأطراف أصابعها؛ ومدت ذراعها وقالت: «آنسة ماركيزة بقبّعة خادمات . إنّ الشيطان يعرف جيّداً ما عليه أن يفعله » .

كانت الرئيسة قد مرّت من أمام الطفلة عند الساعة التاسعة صباحاً في طريقها إلى غرفة المحادثة؛ وتأخّرت في الحديقة قليلاً تجادل بعض البنّائين في سعر أعمال لإصلاح مجاري الماء ، ولكنّها لم تر الطفلة جالسة على المصطبة الحجرية . كذلك لم ترها راهبات أخريات مررن من هناك عدّة مرّات. أمّا الراهبتان المبتدئتان اللتان سلبتاها الخاتم فقد أقسمتا بعدم رؤيتهما لها عندما مرّتا من هناك بعد الصلاة الثالثة.

كانت رئيسة الدير قد استلقت لتوّها لنوم القيلولة عندما سمعت أغنية بصوت منفرد ملأ فضاء الدير. سحبت الخيط المعلّق إلى جانب سريرها قارعة جرساً، فظهرت في الحين راهبة مبتدئة في ظلام غرفتها. سألتها عن التي غنّت بهذه الجودة ، فأجابت الراهبة:

– « إنّها الطفلة»

كان النعاس لا يزال مسيطراً على الرّئيسة فغمغمت قائلة :

– «يا له من صوت جميل ! » .

ثمّ قفزت في الحين وقالت :

– «أيّة طفلة ؟ » . . .

أجابتها الراهبة المبتدئة :

– «لا اعرف . هي طفلة اشاعت الفوضى في الساحة الداخلية

منذ هذا الصباح » .

صاحت الرئيسة .

– « يا للسرّ المقدّس ! ».

قفزت من السرير وجرت في الدير على جناح السرعة. وصلت إلى حوش الخدمة مستدلّة بالصوت . كانت «سييرڤا ماريا» تغنّي وهي جالسة على مقعد، وجدائلها مفرودة على الارض وسط الخدم المسحورين بصوتها . وبمجرّد رؤيتها الرئيسة ، سكتت عن الغناء . رفعت الرئيسة الصليب الذي كانت تحمله معلّقاً في رقبتها، وقالت:

– «سلاماً ، يا مريم الغذراء ! » .

قال الجميع:

– « حبلت دون أن تقترف إثماً ».

هزّت الرئيسة الصليب كما لو كان سلاح حرب ضدّ «سييرڤا ماريا» ، وصاحت :

– «ابتعدوا ! ».

تراجع الخدم تاركين الطفلة وحيدة في مكانها ثابتة النظرات حذِرة .

صرخت رئيسة الدير:

– « يا مسخ الشيطان!. لقد تحوّلتِ إلى كائن غير مرئيّ لإغوائنا» .

لم يستطع أحد دفعها لنطق ولو كلمة واحدة. أرادت راهبة

مبتدئة أن تأخذ يدها وتذهب بها، غير انّ الرئيسة منعتها صارخة برعب:

– «لا تلمسيها».

ثمّ نادت بالجميع :

«لا تلمسوها» .

وأخيراً أخذوها عنوة، وهي ترفس رجليها، محاولة عضّ أحداهن بأسنانها، إلى الحجرة الأخيرة لسرادق السجن . في الطريق انتبهوا أنّها كانت ملطّخة ببرازها . غسلوها بالماء داخل الأسطبل .

قالت الرئيسة محتجّة :

– « على الرّغم من كثرة الاديرة في المدينة ، يبعث لنا السيّد الأسقف هذا الغائط ! » .

كانت غرفة السجن واسعة ذات جدران خشنة وسقف شديد الارتفاع ظهرت عليه نتوءات الارضة في جوانبه الاسطوانيّة . الى جانب الباب الوحيد للغرفة، امتدت نافذة بارتفاع الجدار. سدّت النافذة قضبان خشبية مدورة ودفّات محكمة الإغلاق، وعارضة من حديد . وكان في جدار العمق الذي يطلّ على البحر نافذة أُخرى صغيرة مغلقة بقطع خشبية تشبه الصلبان . كانت قاعدة السرير عبارة عن كتلة من الملاط، وعليها مرتبة من الكتّان ومحشية بالقشّ قذرة بفعل الاستعمال. في ركن من الحجرة امتدت مصطبة للجلوس ومنضدة للعمل تستعمل كمذبح ومغسل في نفس الوقت . وفوق الطاولة علق صليب وحيد على الجدار. في تلك الغرفة تركت «سييرفا

ماريا» مبللّة حتى جدائلها ترتجف من الخوف وفي رعاية حارسة مدربة على كسب الحرب الالفيّة مع الشيطان .

جلست فوق السرير تنظر إلى القضبان الحديدية للباب المصفّح. رأتها الحارسة على هذه الحالة عندما ذهبت إليها بصحن وجبة العصر عند الساعة الخامسة مساء . لم تتحرّك الطفلة. حاولت الحارسة نزع قلادتها إلاّ أنها أمسكت بمعصمها وأجبرتها على تركها . وفي محاضر سجلات الدير، التي دُوّنت في تلك الليلة ، صرّحت الحارسة أن قوة من العالم الآخر قد هزمتها .

بقيت الطفلة بلا حراك في حين أغلق الباب. سمعت أصوات السلسلة ودورتي المفتاح في القفل . نظرت إلى ما أمامها من طعام فوجدته: فضالة من القديد، وكعكة من جذور المنيهوت، وفنجان من الشكولاتة. جرّبت أكل الكعكعة فمضغتها ثمّ بصقتها. اضطجعت على ظهرها . سمعت صوت البحر والريح الرطبة والرعود الأولى لشهر نيسان (ابريل) التي كانت تقترب شيئاً فشيئاً . وفي فجر صباح اليوم التالي، عندما جاءت الخادمة بالفطور ، وجدتها نائمة على قش المرتبة التي مزّقتها بأسنانها وأظفارها .

عندما حل وقت الغداء قادوها، دون مقاومة، إلى قاعة الطعام الخاصّة بالراهبات المبتدئات اللاتي لم ينعزلن بعدُ . كانت قاعة واسعة، بقبّة عالية، ونوافذ كبيرة يدخل منها صفاء البحر بسخاء، ويُسمع منها عن قرب دويّ الساحل . بلغ عدد الراهبات المبتدئات عشرين راهبة، معظمهنّ من الشابات، وجلسن في صفّ ثنائي الى موائد خشنة . كنّ يلبسن أردية من الصوف العادي، حليقات الرؤوس. بدا عليهن الفرح

الممزوج بالبله. يخفين انفعالهنّ لأكلهن وجبتهن اليومية على نفس المائدة التي تأكل عليها إحدى المجنونات أو المصابات بمسّ .

جلست «سييرڤا ماريا» بالقرب من الباب الرئيس بين حارستين شاردتي الذهن . لم تذق الطعام الاّ قليلاً . كانت قد ألبست صداراً شبيهاً بالذي ترتديه المبتدئات ، وكان شبشبها لا يزال مبللاً . لم ينظر إليها أحد أثناء الاكل، ولكن عند الانتهاء منه، أحاطت بها كثرة من الراهبات المبتدئات، وتأملن باندهاش خرزات قلائدها. حاولت إحداهنّ نزعها عنها فغضبت «سييرڤا ماريا» بشدّة . أبعدت الحارسات اللاتي حاولن إخضاعها بدفعات من يديها، وصعدت فوق المائدة، وجرت من طرف إلى آخر، وهي تصرخ مثل مجذوبة حقيقية مهيّأة للشجار والهجوم . حطّمت كلّ ما وجدته في طريقها، وقفزت من النافذة فكسرت تعريشة الحوش، وأثارت خلايا النحل، وهدمت حواجز الاصطبلات، وحدود الحظائر . إنتشر النحل في كلّ مكان، وخرجت الحيوانات منطلقة تخور مرتعبة هاربة إلى حجرات النوم المنعزلة .

منذ تلك الحادثة لم يحصل أيّ ضرر الاّ ونسب إلى «سييرڤا ماريا». وقد صرّحت العديد من المبتدئات، وكتب تصريحهّن في سجلّ الدير بأنّهنّ رأينها تطير بأجنحة شفافة ينطلق منها أزيز مدهش. احتاجت الراهبات إلى يومين، وإلى فصيلة من العبيد للسيطرة على الماشية وإعادتها إلى حظائرها ، ولإرجاع خلايا النحل إلى مواضعها، ولإعادة النظام إلى الدير. وانتشرت شائعات مفادها أنّ الخنازير غدت مسمومة، وإنّ المياه اصبحت تسبب القدرة على التنبؤ ، وأنّ إحدى الدجاجات المرتعبات فرّت طائرة من على السطح واختفت عند الأفق

فوق البحر . غير انّ فزع الراهبات الكلاريسات كان متناقضاً ، فعلى الرغم من مبالغات رئيسة الدير ورعب الأخريات ، تحوّلت حجرة سجن «سيرڤا ماريا» إلى مركز يجذب فضول الكثيرات.

كان حظر التجوّل في الدير يدوم يومياً من صلاة المساء عند الساعة السابعة حتى صلاة الصبح عند الساعة السادسة. وفي هذه الأثناء كانت الأنوارتطفأ باستثناء بعض الحجرات. أما الآن فقد دبت الحياة في الدير وماج بالحركة على غير ما عهد من قبل:أصبحت الظلال تتحرّك في الممرّات، والغمغمات المتقطّعة تسمع على عجل وفزِع . أقيمت ألعاب الورق الإسبانيّ والنرد في حجرات يصعب الشكّ فيها، وتناولت الراهبات المشروبات الممنوعة ودخنّ التبغ الملفوف خفيةً ، لاوّل مرّة منذ أن منعته «خوسيفينا» داخل المنعزل . لقد كان لطفلة حلّ الشيطان بجسدها ، مقيمة بالدير ، جذابية كجذابية المغامرات الجديدة .

وحتى الراهبات الأشد التزاماً بدأن يهربن من المنعزل في ساعات الحظر، ويذهبن جماعات من اثنتين أو ثلاث للتحدّث مع «سيرڤا ماريا».

استقبلتهن بالبداية بعداء ، لكنّها سرعان ما تعلّمت التعامل معهنّ حسب مزاج كلّ واحدة وحسب الوقت. تمثلت إحدى طلباتهنّ المتكرّرة في أن تصبح لهنّ وسيطة، أو ساعية بينهنّ وبين الشيطان، ليطلبن منه تحقيق أمنيات صعبة . درجت «سيرڤا ماريا» على أن تقلّد أصواتاً من العالم الآخر، وأصواتاً لمذبوحين واصوات المسوخ الشيطانيّة. صدّقت الكثيرات خبثها ومداعباتها ، فدوّن اسمها في

سجلات الدير إنسانة سليمة غير مجنونة. وفي إحدى الليالي المشؤومة اقتحمت دورية من الراهبات المتنكرات سجن «سييرڤا ماريا»، كممن فمها وسلبنها قلائدها المقدسة . لم يحقق هجومهنّ إلاّ نصراً زائلاً ، إذ أنّ الراهبة التي خططت للهجوم ، وفيما هي تتعجل الهروب، تعثرت بالسلم المظلم واصيبت بكسر في الجمجمة. لم تتمتّع صاحباتها بلحظة من الاستقرار والسلام إلاّ بعد إعادة القلائد المسروقة إلى صاحبتها . ومن تلك الحادثة لم يعد أحد إلى تشويش ليالي حجرة سجنها .

كانت تلك الأيام بالنسبة إلى ماركيز «كاسالدويرو» أيام حداد. لقد ندم على فعلته سريعاً وخيّم عليه ذهول حزين لم يتخلّص منه بعد ذلك أبداً . طاف مرّات عديدة حول الدير وتساءل في نفسه : وراء أية نافذة من تلك النوافذ العديدة تقبع «سييرڤا ماريا» ، وهل تفكر بي؟!، بعد إحدى جولاته وعند عودته إلى المنزل وجد «برناردا» جالسة في الحوش تتمتع بالهواء المنعش لساعات الليل الأولى . أصابه الخدر خوفاً من شؤم سؤالها عن «سييرڤا ماريا» ، غير انّها بالكاد نظرت إليه.

أطلق كلاب الحراسة واضطجع في الأرجوحة بالحجرة آملاً ينام نوماً أبدياً ، لكنّه لم يستطع ،فقد هبت الرياح التجارية وحولت الليلة إلى ليلة حارقة، وأطلقت المستنقعات أنواعاً من الهوامّ المصعوقة بالحرارة الخانقة، وموجات من الحشرات ذات السيقان الطويلة آكلة اللحوم، ولإبعادها أحرق روث الأبقار في حجرات النوم. في مثل تلك الحال يعم الناس الخدر، ولذا ينتظرون وابل المطر الأول لذلك العام بكثير من الشوق . وبنفس هذا الشوق يتمنّون انقطاعه إلى الابد بعد ستّة أشهر من انهماره .

لم يكد يبزغ نور الفجر حتى ذهب الماركيز إلى منزل «أبرينونثيو» . وبعد جلوسه أمامه مباشرة شعر بارتياح كبير لأن الطبيب شاركه آلامه. تطرّق إلى موضوعه الذي جاء من أجله بلا مقدمات.

– « لقد أودعت الطفلة دير «سانتا كلارا» .

لم يفهم «أبرينونثيو» قصده، فاستغلّ الماركيز حيرته ليصدمه بالمفاجأة التالية :

– « سيطردون الأرواح الشرّيرة منها » .

تنفّس الطبيب بعمق، وقال بهدوء نموذجي :

– «أخبرني بكل شيء » .

حدثه الماركيز عن زيارته الأسقف وجزع الصلوات وقراره الأعمى وسهر لياليه . كان سرده على طريقة مسيحيّ قديم لم يترك لنفسه أيّ سرّ ليرضي النفس .

قال الماركيز:

– « إنّني متأكّد من أنّ ذلك أمر من الخالق ».

أجابه «أبرينونثيو» :

– « هذا يعني أنك عدت إلى الإيمان».

قال الماركيز:

– « الإيمان الكامل شيء لا يدرك. والشكّ يقاوم » .

فهم «أبرينونثيو» قصده لأنّه اعتقد دائماً أن عدم الإيمان يسبّب ندباً لا يمّحي في المكان الذي حل به الإيمان ، والذي يمنع نسيانه . غير

انّ ما بدا له غير مفهوم هو إخضاع ابنته لقسوة طاردي الأرواح الشرّيرة .

قال الطبيب:

- « لا يوجد فرق كبير بين هذا والسحر الذي يمارسه السّود، بل إنّه أسوأ، لأنّ السود لا يتجاوزون التضحية بالديكة لآلهتهم ، في حين انّ محاكم التفتيش تفرح لجزر الأبرياء بالمقصلة، أو لشوائهم أحياء في عرض عامّ » .

وبدت له مشاركة الراهب «كايتانو دي لاورا» أثناء زيارة الأسقف سابقة مشؤومة .

قال دون تردّد :

- « إنّه جلاّد » وانغمس في تعداد قرارات قديمة بإعدام الملحدين والمصابين بالأمراض العقليّة بالحريق ، وفي تعداد الذين قُتلوا بتهمة الجنون أو الإلحاد .

وقال مختتماً كلامه:

- « أظنّ أنّ قتلها أرحم وأكثر توافقاً مع المسيحيّة من دفنها حيّة».

اشار الماركيز بعلامة الصليب، فنظر إليه «أبرينونثيو» وهو يرتجف كشبح بلباس الحداد ، ورأى في عينيه من جديد علامات الشكّ التي ولدت معه .

قال الطبيب للماركيز :

- « أخرِجْها من هناك».

فأجابه هذا قائلاً:

« هذا ما أريد أن أفعله منذ أن رأيتها تسير نحو سرادق المدفونات أحياءً ، غير انّي لا أجد في نفسي القوّة الكافية لمعارضة إرادة الخالق » .

قال «أبرينوثيو»:

- « تعذّب إذن واندم، فعسى أن يشكر الخالق لك ذلك » .

في تلك الليلة طلب الماركيز مقابلة الأسقف. كتب الطلب بخطّ يده بتعبيرات متشابكة وخطّ طفولي ، وسلّمه شخصياً للبوّاب للتأكّد من وصوله إلى المعنيّ بالأمر .

في يوم الاثنين تمّ تبليغ الأسقف أن «سييرڤا ماريا» أصبحت جاهزة لإخضاعها للتعاويذ والرقى . كان قد انتهى لتوه من تناول وجبته المسائية فوق السطح المظلّل بقمرية الازهار الجرسيّة الصفراء. لم يعر الخبر اهتماماً كبيراً . كان أكله قليلاً ، ويأكل باعتدال وبطء. وفي تلك اللحظة كان الاب «كايتانو دي لاورا» يجلس قبالته ويقرأ بصوت ثابت وبأسلوب شبه مسرحي؛ وكلا الأمرين يناسب نوعية الكتب التي يختارها هو نفسه وحسب ذوقه وتقديره .

كان القصر القديم كبيراً جداً بالنسبة للاسقف الذي لم يستعمل منه سوى قاعة الزيارات، وحجرة النوم والسطح المكشوف الذي اعتاد القيلولة، وتناول الطعام فوقه حتى وصول فصل الامطار. وفي الجناح

المقابل أقيمت المكتبة الرسميّة التي أنشأها «كايتانو دي لاورا» وأثراها وحافظ عليها بيد ماهرة ، وصارت في زمانها واحدة من افضل مكتبات بلاد الهنود . أمّا باقي البناء فهو عبارة عن إحدى عشرة غرفة مغلقة يتراكم فيها الحطام منذ قرنين .

باستثناء الراهبة المناوبة ، كان «كايتانو دي لاورا» هو الشخص الوحيد الذي بإمكانه دخول بيت الاسقف خلال الساعات المخصّصة للطعام . لم يكن ذلك لمميزات شخصيّة فيه، كما كان يقال ، بل لجدارته كقارئ . لم تكن لديه أيّة وظيفة محدّدة ولا مهنة معلومة باستثناء عمله أميناً للمكتبة ، غير أنّه اعتبر نائباً فعليّاً للأسقف نظراً لقربه منه ، ولم يصدّق أحد أن هذا الأخير يمكنه أن يتّخذ قراراً بدون استشارة « دي لاورا» . كانت حجرته الخاصّة تقع في بيت مجاور يتّصل بالقصر عن طريق ممرّ داخليّ ، وضم البيت مكاتب وغرف موظّفي الأسقفيّة، وغرف بعض الراهبات المكلّفات بالخدمات المنزليّة الخاصّة بالأسقف . إلاّ أنّ المكتبة كانت بمثابة بيت «دي لاورا» الحقيقي، لانّه كان يقضي فيها أربع عشرة ساعة تقريباً كلّ يوم: يقرأ أو يعمل فيها. وفي تلك المكتبة وضع سريراً سفرياً ينام عليه عندما يغلبه النعاس .

والشيء الجديد في تلك الأمسية التاريخيّة هو تلعثم «دي لاورا» في القراءة؛ الأكثر غرابة من ذلك تجاوزه صفحة بالخطأ، واستمراره بالقراءة دون الانتباه لذلك .

– « في أيّ شيء تفكّر ؟ » .

أصيب «دي لاورا » بالذعر ، وأجاب :

- « قد تكون الحرارة . لماذا ؟ » .

إستمرّ الأسقف بالنظر إلى عينيه وقال له : «بالتأكيد هناك شيء آخر غير الحرارة » . واعاد عليه سؤاله من جديد بنفس نبرته الاولى :

- «بم كنت تفكّر ؟» .

أجابه «دي لاورا»:

- « بالطفلة » .

لم يعلّق الأسقف على ذلك ، فمنذ زيارة الماركيز لم تكن هناك بالنسبة لهما أيّة طفلة أخرى في العالم غيرها. تحدّثا عنها كثيراً وراجعا سويّة أخبار المصابين بمسّ من الشيطان ، وكذا مذكرات القديسين عن ممارسي التعاويذ والرّقى . تنهّد «دي لاورا» وقال :

- «لقد حلمت بها » .

سأله الأسقف:

- « كيف يمكنك أن تحلم بإنسان لم تره من قبلُ أبداً ؟» .

قال «دي لاورا»:

- « كانت ماركيزة صغيرة مولّدة بلغت من العمر اثني عشر ربيعاً ولها جدائل تنسحل وراءها كأنّها معطفُ ملكة، فكيف يمكن أن تكون شخصاً آخر ؟» .

لم يعرف عن ألاسقف أنه رجل رؤيا سماويّة، أو رجل معجزات، أو ذو مزاج حادّ. ارتكزت مملكته على هذا العالم ، لا العالم الآخر . ولذا حرّك رأسه دون قناعة واستمرّ بالأكل.

إستأنف «دي لاورا» قراءته بحذر أكبر ، وعندما انتهى الأسقف من تناول طعامه ، ساعده «دي لاورا» للجلوس على الكرسيّ الهزّاز . وبعد أن استقرّ على راحته في الكرسي ، قال الأسقف :

- « والآن اروِ لي حلمك » .

كان الحلم بسيطاً جداً ، فقد حلم «دي لاورا» بـ «سييرڤا ماريا» جالسة قبالة نافذة مطلّة على حقل مغطّى بالثلج. جلست تأكل حبّة بعد أخرى من عنقود عنب بحضنها . ومن العجب أنها كلما قطفت حبّة من العنقود، نمت أخرى مكانها . الطفلة جلست أمام نافذتها منذ سنوات طويلة ، تحاول الانتهاء من أكل العنقود ، وأنها لم تكن على عجلة من أمرها لعلمها أن موتها كائن في الحبّة الأخيرة منه .

قال «دي لاورا»:

- « والشيء الغريب أنّ النافذة المطلّة على الحقل ، هي نفس نافذة «سالامانكا» ، التي وقفت أمامها أثناء ذلك الشتاء الذي تساقطت فيه الثلوج لثلاثة أيام متواصلة ، والذي ماتت فيه الخرفان مختنقة بالثلج».

تأثّر الأسقف كثيراً فهو يعرف «دي لاورا» جيّداً، ويعلم أن عليه أن يأخذ بنظر الاعتبار ألغاز احلامه . ولقد تمتع «دي لاورا» بمكانة مهمّة في الأسقفية، وكسب ودّ الأسقف لمواهبه الكثيرة وحسن طبعه أغمض الأسقف عينيه لينام الدقائق الثلاث المعتبرة قيلولته المسائيّة .

لم يكن «دي لاورا» قد انتهى بعدُ من تناول طعامه عندما تمدّد الأسقف على كرسيه الهزاز واتّخذ قراره الحاسم.

- « تكلّفْ أنت بالأمر » .

قال ذلك دون أن يفتح عينيه ، وشخر شخير أسد . انتهى «دي لاورا » من تناول طعامه وجلس على كرسيه المعتاد ذي المسند تحت القمريّة المزهرة . حينذاك فتح الأسقف عينيه وقال له :

« لم تُسمعني أجابتك بعدُ » .

أجابه « دي لاورا»:

- « كنت أظنّ أنك قلت لي ذلك وأنت نائم ».

فردّ عليه الأسقف قائلاً :

- « والآن أعيد عليك ما قلته وأنا مستيقظ . أُوصيك بصحّة الطفلة » .

قال «دي لاورا»:

- « إنّ هذا أغرب ما يمكن أن يحدث لي ».

- « وهل يعني جوابك هذا النفي ؟ » .

أجابه «دي لاورا»:

- « لست مختصاً بالتعاويذ ، أيّها الاب. ليس لديّ الطبع أو التكوين ولا حتى المعلومات لأكون كذلكَ . اضافة الى أننا نعلم أن الخالق قد حدّد لي طريقاً آخر» .

فعلاً ، لقد كان «دي لاورا» ، وبفضل جهود الاسقف ، واحداً من ثلاثة مرشحين أخيرين لشغل منصب المكلّف بجمع مطبوعات ومخطوطات اليهود من أصل إسباني ، تلك الموجودة بمكتبة الڤاتيكان،

غير أن الأسقف، و«دي لاورا» لم يسبق لهما أن ذكرا هذا الأمر من قبلُ على الرغم من معرفة الاثنين بالموضوع .

قال الأسقف:

– « هذا يعزّز رايي أكثر، لأنك إن عالجت قضية الطفلة بشكل صحيح، فقد تكون تلك هي الدفعة التي نحتاج إليها».

كان «دي لاورا» مدركاً للصعوبات التي يواجهها في التفاهم مع النساء . كنّ يبدين له متمتّعات بقابلية منطقية لا يحِدْنَ عنها للسير، دون عثرات في ثنايا صُدف الواقع. إنّ مجرّد فكرة الالتقاء بهنّ، وحتى مع مخلوقة بريئة مثل «سييرڤا ماريا» ، كانت كافية لتجميد عروق يديه.

قال بحزم:

– « لا ، أيّها السيّد إنني لا أشعر بالكفاءة لذلك».

أجابه الأسقف :

– «بل إنك كفوء، واضافة إلى ذلك لديك ما ينقص الآخرين : الإلهام » .

كانت كلماته ذات جرس قويّ ، وعليه لم يعد ثمة مجال للشدّ والجذب أكثر من ذلك . ورغم ذلك لم يكلّفه الأسقف بالأمر في الحين، بل منحه وقتاً للتفكير حتى نهاية آلام الأسبوع المقدّس الذي بدأ في ذلك اليوم .

قال له الأسقف:

– « إذهب لرؤية الطفلة وادرس حالتها بعمق وأخبرني».

وهكذا كان ، وبهذه الطريقة دخل «كايتانو ألثينو ديل إسبيريتو سانتو دي لاورا إي اسكوديرو» ، حياة «سييرڤا ماريا» وقد أكمل السادسة والثلاثين من عمره ، حديثاً، ودخل معها أيضاً في تاريخ المدينة . كان من قبلُ تلميذاً للاسقف عندما شغل كرسياً أسقفياً لتعليم اللاهوت بمدينة «سالامنكا» ، حيث حصل «دي لاورا» على الإجازة بأعلى درجة من بين زملائه . كان متأكّداً أنّ والده من ذريّة «گارثيلاسو دي لا بيگا » ، فكنّ له احتراماً يكاد يكون قدسياً، ولهج بذلك الاحترام بشكل دائم. كانت أمّه مولّدة من «سان مارتين دي لوبا» بإقليم «مومپوكس» ، ومهاجرة إلى إسبانيا مع والديها . واعتقد «دي لاورا» أنه لم يرث من أمّه ايّة صفة حتى ذهابه إلى « مملكة غرناطة الجديدة » فاكتشف حنينه الموروث .

ومنذ محادثته الأولى مع «دي لاورا» ، ظنّ الأسقف «دي كاثيرس إي ڤرتودس» أنه أمام واحدة من تلك القيم الغريبة التي زينت المسيحيّة على زمنه .

جرت تلك المحادثة في صباح أحد الأيام الجليدية لشهر شباط (فبراير)، ومن خلال النوافذ بدت الحقول المغطّاة بالثلوج ، وفي العمق اصطفت أشجار الحور على جانبي النهر . وتحوّل ذلك المنظر الشتائي إلى إطار حلم مُفزع طارد الشابّ اللاهوتي بقية حياته .

تحدّثا عن الكتب ، دون شك. لم يصدق الأسقف أن بإمكان «دي لاورا» قراءة هذا الكمّ الهائل من الكتب لصغر سنه. تحدّث «دي لاورا» له عن «گارثيلاسو»، فاعترف الأسقف أنه عرفه بشكل غامض،

غير أنّه يتذكره كشاعر كافر لم يذكر الخالق أكثر من مرّتين في كلّ أعماله .

قال «دي لاورا»:

- « ليس بهذه القلّة، وعلى كلّ حال ليس الأمر غريباً حتى لدى أفضل مسيحيي عصر النهضة» .

وفي يوم تخرّجه اقترح عليه المعلّم مرافقته إلى مملكة «يوكاتان» المجهولة، حيث تمّ تعيينه أسقفاً . وبالنسبة لـ «دي لاورا» الذي عرف الحياة من الكتب ، بدا العالم الواسع لأمّه حلماً لم يرغب أن يكون صاحبه أبداً .

فقد كان مجرد تخيله الحرارة الضاغطة، وروائح الجيف الكريهة، والمستنقعات التي تنبعث منها الأبخرة والدخان ، أثناء إخراج الخرفان المتجمدة من تحت الثلوج يسبب له الضيق. ولقد فهم الأسقف، الذي شارك في حروب أفريقيا، ذلك بسهولة وسرعة.

قال «دي لاورا»

- « سمعت أنّ رجال ديننا يجنّون من الفرح في بلاد الهنود».

فردّ الأسقف قائلاً :

- « وثمة من يشنق نفسه . إنّها مملكة مهدّدة باللواط وعبادة الأوثان وأكل لحوم البشر » .

وأضاف بشكل طبيعي:

- « كما هي الحال في بلاد العرب » .

لكن «دي لاورا» كان يظنّ أيضاً أنّ تلك هي جاذبيتها الكبرى، فآمن بعدم الحاجة إلى محاربين قادرين على فرض الجوانب الإيجابية للحضارة المسيحية كعدم الحاجة تماماً الى من يدعو ويعظ في الصحراء. ومع ذلك اعتقد، ومنذ الثالثة والعشرين من عمره، أنّ طريقه لشدّة تقواه صار واضحاً، للوصول إلى حسن العاقبة .

قال:

- «حلمت طيلة حياتي أن أكون أمين مكتبة»، إنّه الشيء الوحيد الذي أصلح له ».

اشترك «دي لاورا» مرة في امتحان لشغل وظيفة في «طليطلة»، تضعه على طريق الوصول الى هدفه وحلمه. كان متأكداً من الحصول على الوظيفة، غير أن معلمه أصّر على قراره.

قال الأسقف:

« إنّ من الأسهل أن تصبح قدّيساً، كأمين مكتبة في «يوكاتان» ، على أن تكون شهيداً في «طليطلة».

فردّ عليه «دي لاورا» دون تواضع :

- « لو تفضّل الخالق عليّ لما أردت أن اكون قدّيساً، بل ملاكاً».

لم ينته من التفكير فيما عرضه عليه معلّمه عندما تمّ تعيينه في «طليطلة» ، غير انّه فضّل «يوكاتان»، ومع ذلك لم يصلا إليها أبداً. كانا قد غرقا في قناة «دي لوس ڤينتوس» بعد إبحار دام سبعين يوماًفي بحر هائج ، وتمّ إنقاذهما من طرف قافلة مهزومة ومكسورة وتركتهما يواجهان مصيرهما في «سانتا ماريا لا أنتيگوا ديل دارين». مكث هناك

مدة تزيد على العام في انتظار البريد الوهمي لأسطول السفن الشراعيّة لغاية تعيين الأسقف «دي كاثيرس» أسقفاً بالنيابة في تلك البلاد ، حيث شغرت تلك الوظيفة لوفاة صاحبها المفاجئ .

وعند رؤيته غابات «أورابا» الهائلة من القارب الذي كان يحملهما إلى الجهة المعنيّة ، تذكّر «دي لاورا» الحنين الذي عذّب أمه بسبب شتاءات «طليطلة» الكئيبة. فالشفق الفاتن والطيور المهولة وعفونة المستنقعات الخاصّة، بدت له ذكريات حبيبة لماض لم يعشه.

قال «دي لاورا»:

- «لم يكن أحد يستطيع ترتيب الأمور بهذه الدقة والإتيان بي إلى بلاد أمّي ، غير الروح المقدّس».

بعد اثني عشر عاماً تنازل الاسقف عن حلمه في «يوكاتان». كان قد اتمّ ثلاثاً وسبعين سنة ، وكان الربّو على وشك القضاء عليه ، فأدرك أنه لن يرى من جديد تساقط الثلج في «سالامانكا» . وفي تلك الايام التي دخلت «سييرفا ماريا» الدير، كان قرار تقاعده قد اتّخذ ، غير انّه كان يريد تمهيد طريق تلميذه نحو «روما» قبل انسحابه .

ذهب «كايتانو دي لاورا» إلى دير «سانتا كلارا» في اليوم التالي ، مرتدياً الرداء الصّوفيّ الخشن على الرغم من الحرارة. حمل معه سطل الماء المبارك، وعلبة زيوت الأسرار المقدسة، التي اعتبرها بمثابة الاسلحة الأولى لمحاربة الشيطان. لم تكن رئيسة الدير قد رأته من قبلُ ، غير ان صيت ذكائه وسلطته كان قد حطّم صمت الدير المنعزل. وعندما استقبلته في غرفة المحادثة عند الساعة السادسة صباحاً، تعجّبت من ملامحه الشابّة وشحوبه الأشبه بشحوب شهيد، وبنبرة صوته ولغز

خصلته البيضاء. غير أنّ جميع افضاله لم تكن كافية لتنسيها كونه رجل حرب الاسقف. أمّا «دي لاورا» فالشيء الوحيد الذي أثار انتباهه هو جلَبَة الدّيَكة.

قالت رئيسة الدير:

- «ليست سوى ستّة إلاّ أنّها تصيح صياح مئة، اضافة إلى ذلك تكلم خنزير وولدت معزاة ثلاثة توائم».

وأضافت بحرص:

- «هذا هو شأن جميع الاشياء منذ أن قام أسقفك بإرسال هذه الهدية الفاسدة إلينا».

وكانت الحديقة المزهرة التي بدت بحالة غير طبيعية تسبب لها، نفس القلق. وأثناء مرورهما بها كانت الرئيسة تثير انتباه «دي لاورا» إلى أحجام وألوان زهورغير حقيقية ، وإلى أن بعضها ذات روائح لا تطاق. وكلّ ما هو عاديّ ويوميّ بدا بالنسبة لها شيئاً استثنائياً. ومع كلّ كلمة منها شعر «دي لاورا» أنها أقوى منه، ولهذا أسرع في شحذ أسلحته.

قال لها «دي لاورا»:

- « لم نقل أن بالطفلة مسّ، بل إنّ أسباباً تجعلنا نفترض ذلك».

فأجابته رئيسة الدير :

- «ما نراه يتحدّث عن نفسه بوضوح».

فاضاف «دي لاورا»:

- «عليك الحذر، لأنّنا ننسب أحياناً إلى الشيطان أشياء لا

نفهمها، ودون أن نفكّر بإمكانيّة إرجاعها إلى الخالق».

قالت رئيسة الدير:

- « قال القدّيس توما ، وانا اتمسّك بقوله، لا ينبغي الإيمان بالشياطين حتى وإن قالوا الصدق».

ساد الهدوء في الطابق الثاني. في أحد جوانبه اصطفت الحجرات الفارغة المغلقة بالأقفال خلال النهار ، وقبالتها امتد صفّ من النوافذ المطلّة على بهاء البحر. كانت الراهبات المبتدئات منشغلات باعمالهنّ ، غير أنهنّ كنّ، في الواقع، حريصات على فهم محادثة رئيسة الدير وزائرها وهما متوجهان إلى سرادق السجن.

قبل الوصول إلى نهاية الممّر ، حيث كانت حجرة «سيبرڤا ماريا» ، مرّا بحجرة «مارتينا لابوردي» ، وهي راهبة قديمة حُكمت بالسجن المؤبّد لاقترافها جريمة قتل اثنتين من زميلاتها بسكّين لتقطيع الذبائح، ولم تعترف بالسبب مطلقاً. سجنت «مارتينا» منذ أحد عشر عاماً ، وكانت مشهورة بحيلها الفاشلة أكثر من شهرتها بجريمتها. ولم تقبل مطلقاً بفكرة كون السجن مدى الحياة شبيهاً بحياة راهبة من المنعزلات، وكانت تصرّ على فكرتها فعرضت نفسها كخادمة في سرادق المدفونات احياء لإتمام حكم ادانتها. تلحفت رغبتها الجامحة التي صارعت من أجلها وجعلتها مقدسة كايمانها، بالحصول على حريتها وإنْ اضطرّت إلى القتل من جديد .

لم يقاوم «دي لاورا» فضوله الصبياني بالنظر إلى حجرة سجنها من خلال القضبان الحديدية للنوافذ . رأى «مارتينا» واقفة تنظر إلى الجهة المعاكسة، وبمجرّد شعورها أن أحداً ما ينظر إليها، أدارت وجهها

نحو النافذة، فتمكّنت الرهبة فوراً من «دي لاورا» . أبعدته رئيسة الدير عن النافذة قلقة ، وقالت له:

– « كن على حذر ، هذه المخلوقة قادرة على فعل أيّ شيء».

فأجابها «دي لاورا» :

– «أإلى هذا الحدّ ؟».

– «هو كذلك، ولو كانت الأمور بيدي لحررتها منذ زمن بعيد. إنّها تسبّب تشويشاً كبيراً لهذا الدير».

عندما فتحت الحارسة باب حجرة «سييرفا ماريا»، انبعثت منها رائحة عفنة . كانت الطفلة مضطجعة على ظهرها فوق السرير الحجري بلا مرتبة، ومربوطة بسيور جلديّة من يديها ورجليها . بدت كالميتة، غير انّ عينيها عكستا نور البحر . رآها «دي لاورا» مثلما شاهدها في حلمه تماماً، فأخذ جسده يرتجف وغطّى بعض أطراف جسمه عرق لزج. أغمض عينيه وصلّى بصوت منخفض وبكل ثقة وإيمان. وعند انتهائه من الصلاة استعاد قواه.

قال «دي لاورا»:

– « حتى وإن لم تكن مصابة بأيّ مسّ شيطانيّ، فانّ لدى هذه المخلوقة المسكينة، كلّ الظروف المناسبة للاصابة به».

أجابته رئيسة الدير بقولها:

– «هذا شرف لا نستحقّه»:

حاولوا أن تكون حجرة سجنها في أفضل حالة ، إلا إن «سييرفا ماريا» صنعت بنفسها مزبلتها الخاصّة.

قال «دي لاورا» :

– «صراعنا ليس موجّهاً ضدّها، بل ضدّ الشياطين التي تحلّ فيها».

دخل ماشياً على أصابع قدميه لتفادي قاذورات الارض، ورشّ الحجرة بمنضحة الماء المقدّس ، مغمغماً الطقوس المناسبة. ذهلت رئيسة الدير لأحجام البقع الكبيرة التي كانت تتركها قطرات الماء المقدّس على الجدران».

صرخت:

– « هذا دمٌ !».

نقدها «دي لاورا» بخفّة لسرعة أحكامها. فإذا كان لون الماء أحمر فليس من المنطق أن تظنّه دماً ، وحتى وإنْ كان كذلك ، فليس من الضروري أن يكون من عمل الشيطان.

وقال:

– « الاكثر عدلاً هو الظنّ بانّها معجزة، وهذه هي قدرة الخالق».

غير انّه لم يكن لا هذا ولا ذاك ، لأنّ القطرات عندما جفّت على الكلس لم تكن حمراء بل بلون أخضر غامق. إحمرّت وجنتا رئيسة الدير ، إذ لم تكن الكلاريسات وحدهنّ محظورات عن ايّ تنشئة علمية أكاديمية، بل جميع النساء في زمنها، ومع ذلك كانت قد تعلّمت المُثاقفة الكلاميّة منذ صغرها من عائلتها المليئة بلاهوتيين شهيرين وملحدين كبار.

أجابته:

- «في الاقلّ، لا ينبغي لنا أن ننفي قدرة الشياطين على تغيير لون الدم».

قال «دي لاورا» في الحين:

- « ليس ثمة شيء أفضل من شكّ في محلّه».

ونظر إليها مواجهة، وقال :

«إقرئي أعمال القدّيس أوغسطين».

فأجابت الرئيسة:

«لقد قرأته جيّداً».

قال «دي لاورا»:

- « عودي إذن لقراءته» .

وقبل أن ينشغل بالطفلة طلب «دي لاورا» من الحارسة، بأسلوب لطيف، أن تخرج من حجرة السجن . ثمّ قال لرئيسة الدير بنبرة تخلو من اللطافة :

- « وحضرتك أيضاً، من فضلك».

قالت:

- « على مسؤوليتك» .

قال «دي لاورا»:

- « الأسقف هو المسؤول الأعلى» .

قالت الرئيسة بشيء من السخرية اللاذعة:

- « ليس من الضروري أن تذكرني بذلك، نعلم أنّكما ملكا الخالق».

أهداها «دي لاورا» متعة الكلمة الاخيرة ولم يجبها بعد ذلك.

جلس على حافة السرير، وفحص الطفلة بدقة طبيب. واستمرّ يرتجف دون عرق.

رأى «سييرڤا ماريا» عن قرب. ظهرت عليها آثار خدوش علامات ضرب. ظهر جلدها شديد الالتهاب من احتكاك السيور الجلدية عليه. غير أنّ الشيء الأكثر إثارة هو جرح كعبها الملتهب والمتقيّح من سوء عمل الأطبّاء الدجالين.

وبينما كان «دي لاورا» يفحصها، شرح لها أن وجودها في الدير ليس هدفه تعذيبها، بل لشكٍ في أن شيطاناً قد حلّ في جسدها لسرقة روحها. وقال لها أنه بحاجة إلى مساعدتها لمعرفة الحقيقة. كان من المستحيل معرفة فيما إذا كانت تسمعه أو إذا كانت تفهم طلبه الذي لم يتعد الرجاء القلبي.

بعد انتهاء الفحص أخرج «دي لاورا» علاجه ، ومنع دخول الراهبة الصيدلية . دهن جروحها بالزيوت وسكّن بنفخات خفيفة وخزات اللحم الملتهب. ودهش لشدة مقاومة الطفلة للآلام . لم تجبه «سييرڤا ماريا» عن أيّ سؤال ولم تبد اهتماماً بمواعظه، ولم تشكُ من أيّ شيء .

تلك بداية تحطم القلب. طاردت الصورة التي رآها إلى «دي

لاورا» هدوء المكتبة. وهذه أوسع مكان في منزل الأسقف، لم تكن فيها أيّة نافذة وغطيت الجدران بدواليب من خشب الماهون مليئة بالكتب المصفوفة بانتظام. وفي الوسط كانت توجد منضدة كبيرة عليها بحوث، ورسائل في فنّ الابحار، واسطرلاب، وأدوات أخرى خاصّة بالإبحار، وكرة أرضيّة عليها إضافات وتعديلات مكتوبة بخط يد رسامي خرائط عديدين أوضحوا من خلالها ما تم اكتشافه جديداً من العالم. وفي العمق انتصبت مائدة كبيرة خاصة بالعمل، وعليها محبرة ، وسكين صغيرة لفتح الرسائل، وريشات الديك الرومي للكتابة، وصمغ الرسائل، ومزهرية فيها زهرة قرنفل متعفّنة. كان المكان مظلماً كلية تنبعث منه رائحة الورق الساكن ورطوبة الغابة وهدوئها.

وفي عمق القاعة، في حيّز ضيّق ، رفعت رفوف أغلقت بأبواب من ألواح خشبية عاديّة. ذاك هو سجن الكتب الممنوعة بناء على تعليمات محكمة التفتيش. فتلك الكتب تتناول «موضوعات تدنّس القدسيّات، وموضوعات خرافية وقصصاً وهميّة». ولم يكن يحقّ لأحد الاطّلاع عليها، غير «كايتانو دي لاورا» الذي تمتع برخصة بابويّة للكشف عن هوّة ضلال كلماتها.

منذ تعرفه على «سيرڤا ماريا» تحول هدوء سنوات «دي لاورا» الطويل إلى جحيم. لم يعد إلى الاجتماع بأصدقائه من رجال الدين، او من العلمانيين الذين شاركوه لذّة الأفكار الخالصة، والمباريات الثقافيّة والأدبية، والسهرات الموسيقيّة. تقلّص شغفه بالمعرفة إلى مجرد فهم خدع الشيطان. اقتصرت قراءاته على ذلك وعلى التأمّل خلال خمسة

أيام بلياليها قبل أن يعود إلى الدير. وفي يوم الاثنين، عندما رآه الأسقف خارجاً بخطو ثابت ، سأله عن شعوره ، فأجابه «دي لاورا»:

– « أراني على جناح روح القدس» .

لبس «دي لاورا» الرداء القطنيّ العاديّ الذي بعث فيه همّة أعلى من همّة حطّاب. تحصنت روحه ضدّ القنوط، ومثل هذا الحصن هو الشيء الذي احتاجه.

ردّت الحارسة على تحيته بهمهمة غير مفهومة، واستقبلته «سييرڤا ماريا» بجبين مقطّب. جعلت بقايا الأطعمة القديمة والبراز المنتشر على الارض، وعند المذبح، وإلى جانب مصباح القربان المقدّس التنفس في حجرة السجن أمراً صعباً، بدت وجبة غداء «سيرڤا» لذلك اليوم كما هي لم تمس. تناول «دي لاورا» الصحن وقدّم للطفلة ملعقة من الفاصولياء السوداء، مع الزبدة المتجمّدة، فرفضته. حاول عدّة مرّات، غير انّ ردّ فعلها لم يتغير. حينذك أكل «دي لاورا» ملعقة منه وتذوقه ثمّ ابتلعه دون مضغ وهو يقوم بحركات تدلّ على الاشمئزاز الحقيقي.

قال لها:

– « إنّ لديك كلّ الحقّ، إنّه طعام مرذول».

لم تعره الطفلة أيّ اهتمام ، وعندما داوى كعبها الملتهب، انقبضت أساريره ودمعت عيناه. ظنّ صمتها رد فعل على هزيمتها فهدأها بهمسات ملاك رحيم. وأخيراً تجرأ على حلّ السيور لمنح جسدها المعذّب بعض الهدنة. حرّكت الطفلة أصابعها عدّة مرّات

لتعرف إن كانت لا تزال موجودة، ومدّت ساقيها الحذرين بفعل الأربطة.

آنذاك، نظرت إلى «دي لاورا» ، أول مرة. وزنته وقاسته وقفزت فوقه بوثبة صائبة لحيوان صيد. ساعدته الحارسة على إخضاعها وربطها. وقبل خروجه تناول «دي لاورا» من جيبه مسبحة من الصندل وعلّقها في رقبة «سييرڤا ماريا» فوق قلائدها القدسيّة.

أصاب الأسقف القلق لمّا رأى «دي لاورا»، أثناء عودته، مخدوش الوجه، معضوض اليد بشكل يثير الألم بمجرّد النظر إليها. وما آلمه أكثر هو أنّ «دي لاورا» كان يطلع الناس على جروحه وكأنّها غنائم حرب ، وكذا آلمته سخريته من خطر الاصابة بمرض السّعار. عالجه طبيب الأسقف بدقّة خوفاً من أن يغدو كسوف يوم الاثنين التالي مقدمة لكوارث خطيرة.

على عكس «دي لاورا»، لم تلق «مارتينا لابوردي» ، الراهبة المجرمة، أيّة مقاومة من «سييرڤا ماريا» . كانت «مارتينا» قد أطلّت، وهي تمشي على أصابع قدميها، على حجرة سجنها بالصدفة فشاهدتها مربوطة اليدين والقدمين إلى السرير . تأهّبت الطفلة وركزت عينيها بثبات وانتباه على الراهبة إلى أن ابتسمت «مارتينا» في وجهها، فابتسمت هي أيضاً واستسلمت من غير شروط. بدت الأمور كما لو انّ روح «دومنگا دي أدڤينتو» قد ملأت المكان في السجن.

حكت لها «مارتينا» عن نفسها وعن سبب وجودها هنا للبقية الباقية من عمرها. تحدثت كثيراً على الرغم من صوتها المبحوح لكثرة صياحها وادّعائها البراءة. وعندما سألت الراهبة «سييرڤا ماريا» عن

سبب وجودها، لم تكن هذه تعلم أكثر ممّا قاله لها معالجها: لطرد الأرواح الشريرة. قالت:

- « إنّ بداخلي شيطاناً».

تركتها «مارتينا» بسلام ظنّاً بها الكذب عليها ، أو أن أحداً كذب عليها، دون أن تعلم أنها واحدة من البيضاوات القليلات اللاتي قيلت لهنّ الحقيقة. أطلعتها على نموذج «مارتينا» من فنّ التطريز، فطلبت إليها الطفلة فك وثاقها لتحاول التطريز مثلها. أطلعتها «مارتينا» على المقصّ الذي حملته في جيب صدريتها وعلى أدوات الخياطة الأخرى وقالت لها :

- «تريدين أن أطلقك، حسناً، ولكنّني احذّرك من أيّة محاولة لإلحاق الأذى بي ، فأنا قادرة على قتلك».

لم تشكّ «سييرڤا ماريا» في تصميمها. حلّت رباطها فأعادت الدرس بنفس السهولة وحسن الاستماع اللذين تعلمت بهما عزف العود. وقبل أن تنسحب «مارتينا» ، وعدتها بالحصول لها على إذن لرؤية كسوف الشمس الكلّي معها يوم الاثنين التالي.

وفي صباح يوم الجمعة دارت طيور السنونو دورة وداع واسعة في السماء ورشّت الشوارع والسطوح بزخّات من الذرق النيلي المقرف. كان من الصعب تناول الطعام، او النوم قبل ان تجفّف شمس وسط النهار الذرق الغزير، وتنقّي نسائم الليل الهواء. غير انّ الفزع قد انتشر، لانّهم لم يكونوا قد شاهدوا من قبلُ مطلقاً طيور السنونو تتبرّز وهي طائرة ، ولم يروا كذلك كيف يمكن لنتانة ذرقها أن تعرقل الحياة.

لم يشكّ أحد في الدير، بالطبع، بقدرات «سييرڤا ماريا» الهائلة على الإخلال بقوانين الحجرة . شعر «دي لاورا» بذلك حتى في توتّر الهواء يوم الأحد بعد القداس، عندما كان يعبر الحديقة وهو يحمل سلّة من الحلوى التي تباع في سقائف البوابة. و«سييرڤا ماريا». الغريبة عن كلّ ذلك ، والتي لا تزال تحمل في عنقها المسبحة، لم تردّ على تحيته ولم تنظر إليه. جلس إلى جانبها ، مضغ جبنة أخذها من السلّة وقال بفمه المليء:

– «إنّ لها طعماً رائعاً».

قرّب االنصف الآخر من الجبنة من فم «سيرڤا ماريا»، فرفضته، لكنّها لم تُدر وجهها مثل المرّة السابقة. أشارت إلى «دي لاورا» أن الحارسة تتجسّس عليهما، فحرّك يده نحو الباب بعنف وقال آمراً :

– « إبتعدي من هنا ! » .

وعندما ابتعدت الحارسة عن الباب، أرادت الطفلة أن تشبع جوعها المتأخّر بنصف الجبنة المتبقي. إلا انّها بصقت اللقمة وقالت :

– «طعمها أشبه بطعم ذرق النونو».

ومع ذلك تغيّر مزاجها وسهّلت له معالجةالكشوط التي كانت تخزّ ظهرها. إنتبهت إلى «دي لاورا» ، أول مرة، عندما اكتشفت أن يده مضمّدة ومعصوبة. سألته بنبرة بريئة يصعب تصنعها عمّا جرى له في يده، فأجابها «دي لاورا» :

– «عضّتني كلبة مسعورة لها ذنَب يزيد طوله على المتر».

أرادت «سييرڤا ماريا» أن ترى الجرح فأزال «دي لاورا» الضماد

وقرّبت هي سبّابتها من الهالة المحيطة بالجرح والمضمّدة بمادّة كبريتيّة ، كما لو كانت جمرة وضحكت لأوّل مرّة .

قالت:

- « أنا أسوأ من الوباء » .

لم يُجبها «دي لاورا» بعبارات من الإنجيل ، بل بكلمات لـ «گارثيلاسو» :

- « يمكنُك أن تفعل هذا مع من يستطيع تحمّله» .

تركها مكتشفاً أن أمراً هائلاً يحدث في حياته ولا يمكن تغييره. وعندما مرّ بالحارسة ذكرته بأمر رئيسة الدير، القاضي بعدم إدخال الأطعمة من الخارج، خوفاً من أن يرسل إليهم أحدٌ ما طعاماً مسموماً، كما حدث خلال الحصار. كذب «دي لاورا» عليها قائلاً أنّه ذهب إلى «سيرڤا» بسلّة الحلوى بإذن من الأسقف ، وقدّم اعتراضاً رسمياً على رداءة الطعام المقدّم للسجينات في دير اشتهر بطبخه الحسن.

خلال العشاء قرأ «دي لاورا» للأسقف بحماس جديد، واصطحبه في صلوات الليل كالعادة، حينما كان يصلي أغمض عينيه للتفكير بشكل أفضل بـ «سييرڤا ماريا». إنسحب إلى المكتبة قبل الموعد المعتاد مفكّراً بها، وكلّما زاد تفكيره بها ازداد شوقه للتفكير.

أعاد بصوت مرتفع قصائد حبّ «گارثيلاسو»، وشك خائفاً أن يحمل كلّ بيت منها هاجساً محدّداً له صلة بحياته هو. لم يستطع النوم، وعند الفجر اتكأ على المكتب واضعاً جبهته على الكتاب الذي كان يقرأ فيه. ومن أعماق نومه سمع صلوات الفجر الثلاث لليوم

الجديد في المعبد المجاور . قال في نومه: «أسأل الخالق أن ينقذك ، يا «سييرڤا ماريا دي تودوس لوس أنخليس». ورأى في منامه «سييرڤا ماريا» مرتديةً صدريّة السّجن وجدائلها تشتعل بالنار من فوق كتفيها ، ورأى أنه رمى زهرة القرنفل القديمة من مزهرية المنضدة، ووضع بدلاً عنها باقة من زهور الغردينيا النضرة. ردّد على مسمعها كلمات «گارثيلاسو» بصوت متحمّس : «لأجلك ولدت ، ولأجلك أفتدي حياتي ، ولا بدّ أن يكون موتي لأجلك، ولأجلك أموت». ابتسمت «سييرڤا ماريا» دون أن تنظر اليه . أغمض عينيه ليتأكّد من انّ الامر لم يكن خدعة أشباح. واختفت رؤياه حين فتح عينيه ، غير أنّ المكتبة كانت قد امتلأت برائحة الغردينيا.

(٤)

دعا الاسقف «كايتانو دي لاورا» لانتظار الكسوف تحت قمريّة زهور الجُريس الصفراء ، وهو المكان الوحيد في البيت الذي يسيطر على سماء البحر. بدت طيور الأخبل الثابتة في الهواء، بأجنحتها المفتوحة ، ميّتة في أوج طيرانها. جلس الأسقف، يحرك الهواء بمروحة، في أرجوحة معلّقة بحلقتين لملاوي مركب، وكان قد نهض لتوّه من القيلولة. وكان «دي لاورا» يتحرّك إلى جانبه في كرسيّ هزّاز من خشب الصفصاف. سيطر الهدوء عليهما حينما كانا يتناولان ماء التمر الهندي، وينظران، من فوق سطح الدير، إلى السماء الواسعة الخالية من الغيوم. بعد الساعة الثانية بقليل بدأ الظلام وعاد الدجاج إلى أعواده، واشتعلت نجوم السماء جميعها في وقت واحد، وتخدّر العالم بفعل قشعريرة غير طبيعيّة. سمع الأسقف صوت أجنحة الحمائم المتأخرة التي كانت تبحث عن إبراجها متلمسة طريقها في الظلام.

صاح الأسقف:

- « الله أكبر! حتّى الحيوانات تشعر به».

جاءت الراهبة المناوبة اليه بقنديل وقطع زجاج مسودة

بالشحار كي ينظر بها إلى الشمس . إستقام الأسقف في أرجوحته، وبدأ النظر الى الشمس من خلال الزجاج وقال: « يجب النظر بعين واحدة». قال ذلك وهو يحاول السيطرة على صفير تنفّسه، ثم أضاف: «وإلاّ فإنّ احتمال خطر فقد العينين وارد».

وبقي «دي لاورا» على حاله حاملاً قطعة الزجاج بيده دون أن ينظر إلى الكسوف. وبعد صمت طويل نظر الأسقف إليه في الظلّ فرأى عينيه الفسفوريتين الغريبتين تماماً عن سحر تلك الليلة المزوّرة، وسأله:

– « بأيّ شيء تفكّر ؟ » .

لم يجبه «دي لاورا» . نظر إلى الشمس فرآها، القمر في المحاق. شعر بألم في شبكية عينيه على الرغم من استعماله الزجاج المعتم ، ولكنّه مع ذلك لم يتوقف عن النظر إليها.

قال الأسقف:

– « ما زلت تفكّر بالطفلة ؟ » .

أصيب «كايتانو» بالذعر، فالأسقف يصيب في أقواله في حالات تتجاوز الحدود الطبيعيّة.

أجاب «دي لاورا» :

– «كنت أفكّر بأنّ العامة ستربط بين مقاديرها السيّئة وهذا الكسوف» .

هزّ الأسقف راسه دون أن يبعد نظره عن السماء ، وقال:

« ومن يدري ، ربّما هم مصيبون في تفكيرهم ! »

وأضاف:

- « إليس من السهل قراءة أوراق الخالق».

قال «دي لاورا»:

- « هذه الظاهرة تمّ حسابها قبل آلاف السنوات على يد الفلكيين الآشوريين ».

فردّ عليه الأسقف:

- « هذا جواب يسوعي».

استمرّ «كايتانو» في النظر إلى الشمس من دون الزجاجة لمجرّد أن يسلّي نفسه. في تمام الساعة الثانية وعشر دقائق صارت الشمس على شكل قرص أسود تامّ ، وخلال لحظات حلّ منتصف الليل في عزّ النهار . وبعدها استعاد الكسوف صفته الأرضيّة، وبدأت الديكة تصيح صياح الفجر. وبعد أن ترك «كايتانو» النظر إلى السماء كان لا يزال يرى قرص الشمس يقاوم في شبكيته.

قال فرِحاً :

- « ما زلت أرى الكسوف. فأينما نظرت وجدته هناك».

إعتبر الاسقف العرض منتهياً وقال:

- « سيزول عنك هذا خلال ساعات».

تمدّد وهو جالس في الارجوحة، وتثاءب وشكر الخالق على اليوم الجديد.

لم يكن «دي لاورا» قد اضاع خيط الحديث.

- « مع كلّ احترامي، أيّها الأب ، فإنّي لا أظنّ أن هذه المخلوقة مصابة بمسّ».

أصاب الاسقف قلق حقيقي هذه المرّة وقال:

- «ولماذا تقول ذلك؟».

أجابه «دي لاورا»:

- « أظنّ أنّها فزِعة لا غير» .

قال الأسقف:

- « لدينا براهين كثيرة ».

وأردف قائلاً:

- «أو إنّك لا تقرأ محاضر الدير؟».

أجل . درس «دي لاورا» المحاضر بعمق، ووجدها مناسبة لفهم ومعرفة عقليّة رئيسة الدير أكثر من حالة «سييرڤا ماريا». كانوا قد عزّموا بالتعاويذ جميع الاماكن التي كانت قد مرّت بها الطفلة صباح يوم دخولها الدير ، وكذا الأماكن التي مستّها. وأخضعوا جميع الأشخاص الذين كانوا معها للعزل والتطهير. وتمّ الحكم على الراهبة المبتدئة التي سرقت قلائدها في اليوم الأوّل بالأشغال الشاقّة التي عليها أن تنفّذها في البستان .

كانت المحاضر تقول: إنّ الطفلة تلذّذت بتقطيع جدي بعد خنقه بيديها، وأنها أكلت خصيتيه وعينيه المتبلّة وكأنّها نار مشتعلة، وأنّها

تتمتّع بموهبة التحدّث بكثير من اللغات التي تبيح لها التكلّم مع الأفارقة من أيّ بلد كانوا ، وبشكل متفوّق عليهم، وكذا مع الحيوانات من أيّ جنس. وفي اليوم التالي لوصولها ماتت البيغاوات الإحدى عشرة الأسيرة التي كانت تزيّن الحديقة منذ عشرين سنة، دون سبب معلوم.
ولقد أدهشتِ الخدم بأغانٍ شيطانيّةوبأصوات تختلف عن صوتها.وعندما علمت انّ رئيسة الدير كانت تبحث عنها ، صارت غير مرئيّة بالنسبة لها فقط.

قال «دي لاورا»:

– « غير انّي، أظنّ أنّ ما يبدو شيطانياً بالنسبة لي هو عادات السوء التي تعلّمتها الطفلة بسبب الإهمال الذي تعرّضت اليه من طرف أبويها».

قال الاسقف منذراًإيّاه:

– «حذارِ! يستفيد العدوّ من ذكائنا اكثر من استفادته من أخطائنا».

فأجابه «دي لاورا»:

– « إنّ خير هديّة له ستكون تعزيمنا بالتعاويذ مخلوقة سليمة».

إنقبض صدر الأسقف وقال:

– « هل عليّ أن أفهم أنّ هذا تمرّد منك؟».

– « عليكم أن تفهموا أنّ لديّ شكوكي ، أيها الأب، غير انّي أطيعكم بكلّ تواضع».

وهكذا فقد عاد إلى الدير دون أن يتمكّن من إقناع الأسقف. كانت عينه اليسرى مغطّاة بكمادّة وضعها له طبيبه، بينما بدأت تزول شيئاً فشيئاً الشمس المنطبعة على شبكيته. شعر بالعيون

محدّقة إليه، وهو يعبر الحديقة والممرّات المتواصلة حتى سرادق السجن، غير أن أحداً لم يتوجّه إليه بكلمة. ملأ المكان شعور بالنقاهة من الكسوف.

عندما فتحت الحارسة حجرة «سييرفا ماريا»، شعر «دي لاورا» أن قلبه كاد ينفجر في صدره وانّه يقف بصعوبة على قدميه. وبهدف معرفة مزاجها لذلك اليوم، سأل الطفلة عمّا إذا كانت قد رأت الكسوف. وفعلاً فقد رأته من على السطح ، ولم تفهم سبب الكمّادة على عينه ، فهي قد نظرت إلى الشمس، دون أيّ حاجز أو مانع من زجاج أو غيره، ومع ذلك لم تعانِ من أيّ شيء. قالت له إن الراهبات رأين الكسوف وهنّ جاثمات على ركبهنّ، وأن الدير أُصيب بالشلل إلى أن بدأت الديكة بالصياح. بينما لم يَبدُ الكسوف بالنسبة لها شيئاً استثنائياً. وأضاف:

– « ما رأيته هو نفس ما أراه كلّ ليلة».

لقد تغيّر فيها شيء ما ، لم يكن «دي لاورا» يجيد تحديده ، أمّا المظهر الاكثر وضوحاً فهو مزاجها الحزين . لم يخطئ «دي لاورا»، فبمجرّد بدء علاجه لها ، حدّقت اليه الطفلة بعينين متلهفتين وقالت بصوت مرتجف:

– «سأموت».

اصاب «دي لاورا» الخدر، وسألها:

– « من قال لك ذلك؟».

أجابت الطفلة:

– « مارتينا» .

– « وهل رأيتها؟».

قالت له الطفلة أنها ذهبت إلى حجرة سجن «مارتينا» مرّتين لتتعلّم منها فنّ التطريز، وأنّهما رأتا الكسوف معاً. وقالت له إنّها طيّبة ومرنة، وانّ رئيسة الدير قد سمحت لها باعطاء دروس التطريز على السطح لرؤية الغروب فوق البحر.

قال «دي لاورا»، دون ان ترمش عيناه:

– « آه، وهل قالت لك متى ستموتين؟».

ردّت الطفلة بالإيجاب بشفتين مزمومتين لتفادي البكاء وقالت:

– « بعد الكسوف».

علّق «دي لاورا» قائلاً:

– « بعد الكسوف ، يمكن أن تكون المئة سنة التالية».

ولكنّه ركّز على مداواتها لئلاّ تشعر بحالته ، وكأنّ عقدة تكاد تخنقه في حنجرته. لم تقل «سييرڤا ماريا» أكثر من ذلك، وعاد ينظر إليها بفضول لصمتها فرأى عينيها دامعتين.

قالت:

– « إنّني خائفة».

سقطت على السرير وانطلقت في نشيج يمزّق القلوب. جلس قربها وبدأ يواسيها ويخفّف عنها، وكأنّه راهب أمام شخص يعترف له بذنب. حينذاك فقط علمت «سييرڤا ماريا» أنّ «كايتانو» معوّذها وليس

طبيبها.

سألته:

- «إذن لماذا تداويني؟».

- « لأنّني أحبّك كثيراً».

لم تكن حسّاسة تجاه جرأته تلك.

وعند خروجه أطلّ «دي لاورا» على حجرة «مارتينا»، ولأوّل مرّة، رأى عن قرب أنّ على جلدها آثار الجدري، وأنّ شعر رأسها محلوق على آخره، وأنفها كبير جداً، وأسنانها كأسنان فأرة، غير انّ قدرتها على التأثير والجذب كانت قويّة يتمّ الشعور بها في الحين. فضلّ «دي لاورا» التحدّث معها من العتبة وقال لها:

- « إنّ لهذه الطفلة المسكينة ما يكفيها من الأسباب المخيفة، فأرجو منك ألاّ تزيدي في ذلك».

إرتبكت «مارتينا» ، إذ أنّها لم تحدد من قبل مطلقاً يوم وفاة أيّ احد ، وخاصّة إذا كان الأمر يتعلّق بطفلة رائعة وبريئة مثل «سييرڤا ماريا» . قالت إنها سألتها سؤالين أو ثلاثة عن حالتها، ومن خلال الأجوبة أدركت أنّها تكذب عليها للتسلّي. ومن جدّية حديث «مارتينا»، علم «دي لاورا» أنّ «سييرڤا ماريا» كذبت عليه ايضاً. طلب منها المعذرة ورجاها ألاّ تعاتب الطفلة على أقاويلها.

فقالت له وقد لفّته بسحرها:

- « انا اعرف جيّداً ما عليّ ان افعله، أعرفِ من تكون حضرتك، واعرف ان نتائج ما فعلته طيبة دائماً».

غير انّ «دي لاورا» شعر بأنّ أحد جناحيه جريح لتأكّده من أنّ «سييرڤا ماريا» لم تكن بحاجة إلى أيّ أحد لاحتضان رعب الموت في حجرة سجنها وحيدة.

وخلال الاسبوع نفسه أرسلت الامّ «خوسيفينا ميراندا» للاسقف مذكرة ملأى بالشكاوى والطلبات، مكتوبة بخطّ يدها، تطلب فيها استبدال الكلاريسات المشرفات على «سييرڤا ماريا»، واعتبار ذلك عقوبة متأخرة لذنوب تمّ التكفير عنها بما فيه الكفاية. وعدّدت قائمة جديدة من الأحداث الاستثنائية التي ضُمت إلى المحاضر، والتي يمكن تفسيرها فقط في ضوء التواطؤ الوقح الموجود بين الطفلة والشيطان. واختتمت المذكرة بشكوى مرّة من تعسّف «دي لاورا» وعنجهيته، ومن تحرّره الفكري، وضغائنه الخاصّة ضدّها، وإفراطه في حمل الأطعمة إلى الدير ، الشيء الممنوع والمخالف للنظام.

إطّلع الأسقف «دي لاورا» على المذكرة فور عودته إلى المنزل، فقرأها وهو واقف دون أن تتحرّك له عضلة في وجهه. وبعد ان انتهى من قراءة المذكرة بدا عليه الحنق.

قال «دي لاورا» :

- «إذا كان ثمة من هو مصاب بمسّ جميع الشياطين فهو «خوسيفينا ميراندا». شياطين الحقد والتعصّب والحمق. إنّها كائن بغيض».

دهش الأسقف لقسوة كلامه ، ولاحظ «دي لاورا» ذلك فأراد أن يفسّر مشاعره.بنبرة هادئة، فقال:

- «أريد أن أقول إنّها تنسب إلى قوى الشرّ هذا الكمّ الهائل من القدرات، وكأنّها عابدة للشيطان».

قال الأسقف:

- «إنّ منصبي لا يبيح لي أن اكون متفقاً معك، ولكن بودّي أن أكون على اتّفاق معك».

وكذلك لامه على تجاوزاته التي من الممكن أن يكون قد اقترفها، وطلب منه أن يصبر ويتفاهم مع رئيسة الدير المعروفة بمزاجها النحس، وقال له:

- «إنّ الإنجيل مليء بنساء مثلها، وحتى بمن هنّ أسوأ منها طبعاً. ومع هذا أثنى المسيح عليهنّ».

لم يستطع الاستمرار في حديثه لأنّ رعود الشتاء الأولى دوّت في المنزل وتدحرجت نحو البحر، وعزلهما وابل توراتيّ عن باقي العالم. تمدّد الأسقف على الكرسي الهزّاز وغرق في أشواقه.

قال متنهداً

- « ما أشدّ بعدنا!».

- « عن أيّ شيء ؟».

- « عن أنفسنا، هل يبدو لك من العدل أن يحتاج أحدنا إلى سنة كاملة حتى يعرف إنّه يتيم؟».

ولأنه لم يتلق ايّة اجابة، فاض حنينه وقال:

- « يملؤني الرّعب بمجرّد التفكير بأنّ الناس في إسبانيا قد ناموا

هذه الليلة».

فأجابه «دي لاورا»:

- «لا نستطيع التدخّل في قوانين دوران الارض».

فعلّق الأسقف قائلاً:

- «غير انّ بإمكاننا تجاهلها لئلاّ تؤلمنا. إنّ ما كان ينقص «گارثيلاسو» هو القلب لا الايمان».

عرف «دي لاورا» تلك الأزمات التي عذبت الأسقف في لياليه المطرة الحزينة منذ أن تمكّن منه الشيب وتغلّب عليه. والشيء الوحيد الممكن القيام به الآن هو إلهاؤه عن آلام المرارة السوداء حتى يغلبه النوم.

وفي نهاية شهر نيسان (إبريل) أُعلن ببلاغ رسميّ عن قرب وصول نائب الملك الجديد السيد «رودريگو دي بوين لوثانو»، قادماً من إسبانيا، مروراً، للذهاب إلى مقرّه في «سانتا في». كان سيقدم بصحبة موكب من الحكام، والموظفين، والخدم، والأطباء الشخصيين، وفرقة رباعية تعزف على الآلات الوترية، أهدتها له الملكة لتعينه على تحمّل ساعات الملل في بلاد الهنود. كان لزوجة نائب الملك صلة قربى برئيسة الدير فطلبت الإقامة في الدير.

ونُسيت «سييرڤا ماريا»، في وسط أعمال الطلاء، والتجيير، وأبخرة القطران، وعذاب المطارق، وصرخات الناس من كلّ جنس ولون، والذين غزوا الدير حتى جزءه المنعزل الخاصّ بالراهبات. سقطت سقّالة مُسبّبة دوياً هائلاً وقتلت احد البنّائين، وجرحت سبعة

من العمال سواه. نسبت رئيسة الدير كلّ ذلك السوء إلى الأنفاس المشؤومة لـ «سييرڤا ماريا» ، فاستغلّت الفرصة الجديدة للمطالبة بنقلها إلى دير آخر لحين انتهاء الزيارة. وكان تعليلها الرئيسي للطلب هو أنه ليس من المستحسن لزوجة نائب الملك أن تجاور مجذوبة، غير انّ الاسقف لم يردّ عليها.

يعود أصل السيّد «رودريگو دي بوين لوثانو» إلى «أستورياس» وهو رجل ناضج حسن المنظر ، اعتبر بطلاً في الكرة الباسكيّة، وفي إطلاق النار على الحجل ، الشيء الذي عوّض الفارق الزمني بينه وبين زوجته التي كانت تصغره بعشرين سنة. اعتاد الضحك بكلّ جسده حتى من نفسه، ولم يضيّع أيّة فرصة للبرهنة على ذلك. ومنذ أن تنسم نسمات الكاريبي الأولى المختلطة بضربات الطبول الليلية وشذى أثمار الجوّافة الناضجة، نزع عنه الزيّ الربيعي وبدأ يتنقل عاري الصدر بين مجاميع السيدات . رسا قاربه وهو لا يرتدي أيّ شيء فوق قميصه ، ولم تلق أية خطابات ، ولم تقم أية عروض عسكرية، ولم تطلق طلقات المدافع ترحيباً. فقط، وتكريماً له، سُمح بتنظيم رقصات إسبانية، ورقصات محليّة، ورقصة الشموع، على الرغم من أنّها كانت ممنوعة من طرف الاسقف. ونظمت أيضاً ساحات المصارعة للثيران، ولعراك الديكة في فضاءات مفتوحة.

بدت زوجة نائب الملك مراهقة تقريباً ، ظهرت نشطة متمردة فاقتحمت الدير كأنّها عاصفة. لم تبق زاوية لم تمرّ بها، أو مشكلة دون أن تفهمها، أو أيّ شيء حسن لم تحاول تحسينه أكثر. وفي زيارتها للدير أرادت أن تطّلع على كلّ صغيرة وكبيرة بسهولة مبتدئ.

واعتقدت رئيسة الدير أنّ من الرزانة عدم إزعاجها بانطباع سيّئ عن السجن فقالت لها:

- «ليس السجن جديراً بالزيارة وليس فيه سوى سجينتين، واحدة منهما مصابة بمسّ شيطاني».

كانت تلك الكلمات كافية لاثارة اهتمامها، ولم تنفع معها أعذار عدم تهيئة حجرات السجن، أو عدم إخبار السجينتين . ولم تكد تفتح الباب حتى القت «مارتينا لا بوردي» بنفسها عند قدمي زوجة نائب الملك تطلب العفو.

لم يبدُ ذلك سهلاً بعد محاولة هرب فاشلة وأخرى ناجحة. قامت «مارتينا» بمحاولتها الأولى قبل ستّ سنوات فحاولت الهرب من السطح المطلّ على البحر، برفقة ثلاث راهبات أخريات تمّت إدانتهنّ بتهم متنوعة وبأحكام مختلفة. ونجحت واحدة منهنّ بالهرب . آنذاك أحكموا سدّ النوافذ وحصّنوا الفناء المحاذي للسطح. وفي العام التالي قامت الثلاث الباقيات بربط الحارسة التي كانت تنام حينذاك داخل السرادق، وهربن من خلال باب خاصّ بالخدمة. وقامت عائلة «مارتينا» بالاتفاق مع مُعرّفها بإعادتها إلى الدير. وخلال أربعة أعوام طويلة، ظلّت السجينة الوحيدة في الدير ، ولم تملك الحقّ في بأيّة زيارة في غرفة المحادثة، ولا حضور قدّاس يوم الأحد في الكنيسة الصغيرة . وعليه بدا العفو عنها صعباً ، ومع ذلك وعدتها زوجة نائب الملك بالشفاعة لها لدى زوجها.

وفي حجرة سجن «سييرڤا ماريا» كان الهواء لا يزال خانقاً بفعل أبخرة الجير المنبعثة ورائحة القطران الكريهة، غير انّ أمراً جديداً كان

قد صدر، فلم تكد الحارسة تفتح باب حجرة سجنها، حتى شعرت زوجة نائب الملك كأنّها سُحرت بهبّة جليديّة. كانت «سيرڤا ماريا» جالسة ترتدي الجلباب البالي والشبشب المتسخ. جلست تخيط ثوباً ببطئ في إحدى الزوايا المنارة بالضوء الطبيعي. لم ترفع عينيها إلى أن حيّتها الزائرة التي رأت في نظرتها قوّة كاشفة تصعب مقاومتها.

– «يا للسرّ المقدّس !»

قالت هامسة وتقدّمت خطوة في حجرة السجن.

همست في أذنها رئيسة الدير:

– «إحذري !، إنّها مثل نمرة».

ثمّ أمسكتها من ذراعها. لم تدخل زوجة نائب الملك ، لأنّ نظرة «سيرڤا ماريا» كانت وحدها كافية لتجعلها تتراجع عن هدفها.

أقام حاكم المدينة، الذي كان رجلاً أعزب متقلّب الأهواء، حفلة غداء على شرف نائب الملك بحضور الرجال وحدهم. عزفت فرقة الموسيقى الإسبانية موسيقى القِرب، ودقت طبول «سان خاثنتو»، وعرضت رقصات شعبيّة ، ثم أقيمت حفلة تنكّرية شعبيّة للسود قوامها السخرية المرّة من رقصات البيض. وفي النهاية فُتح ستار في عمق القاعة وظهرت عبدة حبشيّة اشتراها الحاكم بوزنها ذهباً، وهي غلالة تشفّ عمّا تحتها تقريباً، وتبرز خطورة عُريها. وبعد ظهورها على قرب من جمهور العامة ، توقّفت أمام نائب الملك وانزلقت الغلالة من فوق جسدها لتسقط عند قدميها.

كان جمالها المتكامل مثيراً للانتباه. لم يكن كتفها قد رنّس

بالوسم الحديدي للتاجر، ولا ظهرها مدموغاً بالحرف الأوّل من اسم صاحبها الأوّل، وفاحت كلّها بنسمة سريّة.

امتقع لون نائب الملك وتنفّس، وبإشارة من يده مسح من ذاكرته ذلك المنظر الذي لا يُطاق.

قال آمراً:

– « أبعدوها، إكراماً للسيّد المسيح !، لا أريد أن أراها ما دمت حيّاً».

وربّما بدافع الانتقام من برودة الحاكم ، قامت زوجة نائب الملك بتقديم «سييرڤا ماريا» في حفلة العشاء التي أقامتها رئيسة الدير في قاعة طعامها الخاصّة. كانت «مارتينا لا بوردي» قد حذّرتهم : «لا تحاولوا نزع قلائدها وأساورها، وسترون كيف انّها ستسلك سلوكاً رائعاً». وهكذا كان فعلاً. ألبسوها ثوب الجدّة الذي وصلت به إلى الدير، وغسلوها ومشّطوا جدائلها الطليقة لكي تنسحل وراءها بشكل أفضل، وأمسكت زوجة نائب الملك بيدها شخصيّاً لتذهب بها إلى مائدة زوجها. دُهشت رئيسة الدير من براعتها وتألّقها الشخصيّ ومعجزة جدائلها. همست زوجة نائب الملك في أذن زوجها:

– «إنّها مصابة بمسّ شيطانيّ».

لم يتمكّن نائب الملك من تصديق كلامها، فهو قد شاهد سابقاً في «بورگوس» مجذوبة تغوّطت دون انقطاع، وطوال الليل، إلى أن طفحت الغرفة . ولتجنيب «سييرڤا ماريا» مصيراً مشابهاً، أوصى بها أطبّاءه الذين أكّدوا بعد فحصها أنْ ليس بها أيّ عرض من أعراض داء

الكَلَب، واتّفقوا مع أقوال «أبرينونثيو» بعدم إمكانيّة إصابتها بعد تلك الفترة الطويلة. ومع ذلك فلم يكن هناك من يعتبر نفسه مسؤولاً، أو مُرخّصاً للشكّ في اعتبارها مصابة بمسّ من الشيطان.

استغلّ الأسقف الحفلة للتأمّل في مذكّرة رئيسة الدير وفي المصير النهائي لـ «سييرڤا ماريا» . وحاول «كايتانو دي لاورا» أيضاً تطهير نفسه قبل معاودة معالجتها بالتعاويذ. انعزل في المكتبة لا يتناول غير الماء والخبز المصنوع من جذور المنيهوت ، لكنه لم يطهر نفسه إذ قضى العديد من الليالي هاذياً، والكثير من الأيام منكباً يكتب أبيات شعر متطرّفة، كانت المُهَدّئ الوحيد للوعة جسده.

عندما أفرغت المكتبة بعد حوالي قرن من الزمن، تمّ العثور على بعض تلك القصائد ضمن ربطة من الأوراق العسيرة القراءة. وكانت القصيدة الأولى هي الوحيدة المقروءة كاملة . كانت عبارة عن ذكرى شخصيّة خاصّة به عندما كان عمره اثني عشر عاماً، وهو جالس على صندوقه المدرسي تحت مطر ربيعي خفيف في الحوش المبلّط بالحجارة بالمعهد اللاهوتي في «أبلا». وكان قد وصل لتّوه بعد العديد من أيام السفر على البغال من مدينة «طليطلة»، مرتدياً رداءً لأبيه تمّ إصلاحه على مقاييسه، وبصحبة ذلك الصندوق الذي يزن ضعفي وزنه، لانّ أمّه قد وضعت به كلّ ما يمكن أن يحتاج إليه للعيش بكرامة حتى نهاية الفترة التجريبيّة للمبتدئين . ساعده البواب على حمله إلى وسط الحوش وتركه هناك يواجه مصيره تحت المطر.

قال له البواب:

- « إحمله إلى الطابق الثالث، وهناك سيدلونك على مكانك في

قاعة النوم».

وخلال لحظات كان طلاب ومدرسو المعهد اللاهوتي جميعهم يطلون على الحوش ليروا ما سوف يفعله بصندوقه. كانت حاله كحال ممثل في عمل مسرحيّ هو الوحيد الذي لا يعرف دوره.

وعندما فهم أن أحداً لن يساعده، أخرج من الصندوق حاجاته التي يستطيع حملها بيديه وصعد بها إلى الطابق الثالث، على سلّم ذي درجات حجريّة مائلة خشنة. دلّه المساعد على مكانه ضمن صفّين من الأسرّة في قاعة نوم المبتدئين. وضع «كايتانو» حاجاته فوق سريره واضطرّ إلى الصعود والنزول أربع مرّات لنقل جميع حاجاته. وأخيراً أمسك بمقبض الصندوق الفارغ وصعد به جرّاً على درجات السلّم .

لم يكن الأساتذة والطلاب الذين رأوه من الشرفات ، ينظرون إليه عند مروره بجانبهم في كلّ طابق. غير انّ الأب العميد انتظره في منبسط الطابق الثالث، عندما كان يصعد بالصندوق، وبدأ بالتصفيق له، وقلّده الآخرون هاتفين . علم «كايتانو» حينذاك أنّه قد تجاوز بتفوّق واحداً من الطقوس الأولى للمبتدئين في المعهد اللاهوتي، والذي يكمن في الصعود بالصندوق إلى غرفة النوم دون طلب مساعدة أيّ أحد. وصارت سرعة بداهته وحسن طبعه، واعتدال مزاجه نموذجاً يحتذي به المبتدؤون.

غير انّ الذكرى التي انطبعت في ذهنه أكثر من غيرها، كانت المحادثة التي جرت تلك الليلة مع العميد في مكتبه. كان قد دعاه للتحدّث معه عن الكتاب الوحيد الذي عثروا عليه في صندوقه، وهو

كتاب غير معروف وناقص ، ومن دون غلاف أو عناوين، عثر عليه هو، صدفة، في أحد أدراج والده . كان قد قرأ منه ما سمحت له به ليالي السفر، وكان شديد الشوق لمعرفة نهاية الكتاب. سألهُ الأب العميد عن رأيه في الكتاب فأجاب:

- « سأعرف ذلك عندما انتهي من قراءته».

قفل العميد على الكتاب في أحد ادراج مكتبه وقال له بابتسامة مُهدّئة:

- « لن تعرف ذلك أبداً، إنّه كتاب ممنوع».

وبعد عشرين عاماً، في المكتبة الأسقفية الظليلة، انتبه إلى انّه قرأ جميع الكتب التي مرّت بين يديه، المسموحة والممنوعة باستثناء ذلك الكتاب .

أصابه الخدر وشعر أن حياةً كاملةً قد انتهت في ذلك اليوم وأنّ حياة أخرى مجهولة بدأت.

كان قد بدأ صلواته المسائية في اليوم الثامن لصيامه عندما أُبلغ أنّ الأسقف بانتظاره في القاعة لاستقبال نائب الملك. كانت زيارة غير متوقعة حتى بالنسبة لنائب الملك نفسه الذي تذكّرها صدفة عندما كان في نزهته الأولى بالمدينة.

استقبله الأسقف بصحبة ستة من رجال الدين. جلس على يمينه «كايتانو دي لاورا» الذي قدّمه باسمه الكامل ، دون ذكر أيّ منصب له. وقبل بدء الحوار ، تفحّص نائب الملك، بنظرة منه ملؤها الشفقة،

الجدران المتآكلة، والستائر الممزقة، والأثاث المصنوع باليد مما أرخص ثمنه، كما تفحّصَ رجال الدين المبلّلين بعرقهم داخل أرديتهم الفقيرة. حزّ ذلك في نفس الأسقف وقال:

- «نحن أولاد يوسف النّجار».

أشار نائب الملك إشارة تدلّ على الفهم، وبدأ يراجع انطباعاته عن الأسبوع الأول لزيارته. ثم تحدّث عن خططه الزائفة بزيادة الاتجار مع «جزر الأنتيل» الإنجليزية بعد التئام جروح الحرب، وتحدّث عن فوائد التدخّل الرسمي في التعليم وعن تشجيع الفنون والآداب بهدف رفع مستوى تلك الضواحي الاستعمارية، وجعلها بمستوى أرجاء العالم الأخرى. قال:

- «إنّ عصرنا عصر تجديد».

عرف الأسقف من جديد سهولة السلطة والحكم في هذا العالم الأرضي. أشار بسبابته المرتجفة إلى «دي لاورا»، دون أن ينظر إليه، وقال لنائب الملك:

- «إنّ الشخص الذي على اتّصال بمستجدّات العصر هو الأب «كايتانو».

تابع نائب الملك اتّجاه سبابته فرأى محيّا «دي لاورا» وعينيه الحائرتين وهما تنظران إليه دون أن ترمشا. توجّه إلى «دي لاورا» باهتمام حقيقي سائلاً:

- «هل قرأت لبنتز؟».

قال «دي لاورا»:

«أجل ، يا سيـدي ، بحكم وظيفتي».

وفي آخر الزيارة بدا واضحاً انّ اهتمام نائب الملك الاكبر انصب على حالة «سييرڤا ماريا» ، وقد فسّر اهتمامه ذاك برعايته لمصالحها، ورغبة منه في إحلال السلام على قلب رئيسة الدير التي تأثّر بمحنتها.

ردّ الأسقف على ذلك بقوله:

– « ما زالت تنقصنا البراهين النهائية، غير انّ محاضر الدير تقول إنّ هذه المخلوقة المسكينة مصابة بمسّ شيطانيّ ، تعرف رئيسة الدير ذلك أفضل منّا».

أجابه نائب الملك بقوله:

– « وهي تظنّ أنّكم قد وقعتم في حبائل الشيطان».

فعقّب الأسقف بقوله:

– « لسنا وحدنا، بل إسبانيا كلّها. فلقد عبرنا المحيط لفرض تعاليم المسيح، ونجحنا في ذلك، في القدّاس، وفي المواكب والمناسبات الدينية، ولكن ليس في الأرواح».

تحدّث عن «يوكاتان» التي بنيت فيها كاتدرائيات ضخمة تفوق في ضخامتها الأهرام الوثنية . قال: «إنّ السكان المحليين اعتادوا حضور القداس لأنّ معابدهم المقدسة كانت لا تزال تحت المذابح الفضيّة». وتحدّث عن اختلاط الدماء والاجناس منذ الاكتشاف: دم إسباني مع دم هندي، ودم هذين الاثنين مع دماء السود من كلّ حدب وصوب، وحتى دماء سود من المسلمين. وتساءل عما إذا كان ذلك الخليط

مقبولاً في مملكة الخالق. وعلى الرغم من صعوبة تنفّسه وسعاله لشيخوخته ، أنهى قوله دون أن يترك لنائب الملك أيّ مجال لمقاطعته:

- « لن يكون كلّ ذلك إلاّ خدعاً حاكها العدوّ».

دهش نائب الملك وقال:

- « إنّ خيبة أمل حضرتكم المحترمة خطيرة جداً».

ردّ عليه الأسقف بلطف:

- «لا ينبغي لحضرتكم أن تروا الأمور هكذا. إنّني أحاول أن أجعل قوة الإيمان أكثر بداهة حتى تصبح تلك الشعوب جديرة بتضحياتنا».

عثر نائب الملك على طرف خيط الحديث وقال:

- «حسب فهمي، إن تعليمات رئيسة الدير شيء عمليّ ، فهي تظنّ، ربّما ، أنّ أديرة أخرى لها إمكانيات أفضل لمعالجة حالة بهذه الصعوبة».

قال الأسقف:

- « فلتعلموا إذن، أنّنا نختار دير «سانتا كلارا»، دون تردّد، لنزاهة «خوسيفينا ميراندا» ، وفاعليتها وقدرتها. والخالق أعلم بأنّنا على حقّ».

أجاب نائب الملك:

- «سأسمح لنفسي بنقل هذا الكلام إليها».

- «إنّها تعلم ذلك بوضوح، غير انّ الذي يقلقني عدم جرأتها

على تصديق ذلك».

وبعد الانتهاء من قوله ذاك، شعر ببوادر أزمة ربويّة قريبة فأسرع لإنهاء الزيارة، وذكّر بأنّ لديه أموراً معلّقة يريد إنجازها مثل المذكرة الخاصة بالوظائف التي قدّمتها له رئيسة الدير، ووعد بالنظر اليها وحلّها بودّ ورعاية حالما تسمح له صحته بذلك.

شكره نائب الملك وأنهى زيارته بمجاملات شخصيّة ، فهو أيضاً يشكو من ربو متواصل . عرض على الأسقف أن يفحصه أطباؤه الخاصون ، غير انّ الأسقف لم يرغب في ذلك وأجابه قائلاً:

- « كلّ ما يتعلّق بي صار بيد الخالق ، وعمري الآن هو نفس عمر العذراء عند وفاتها».

وعلى عكس الاستقبال، كانت مراسيم التوديع بطيئة ورسميّة. وقد رافق ثلاثة من رجال الدين، ومن بينهم «دي لاورا»، نائب الملك، بصمت، في الممرّات الكئيبة حتى الباب الكبير . وكان حرّاس نائب الملك يراقبون الشحاذين بشدّة فشكلوا سوراً من الرماح المتقاطعة. وقبل صعوده الى العربة ، التفت نائب الملك نحو «دي لاورا» وأشار إليه بسبابته، قائلاً:

- « لا تجعلني أنساك».

كانت جملة غير متوقعة وغامضة لم يستطع «دي لاورا» الردّ عليها سوى بإشارة احترام منه.

توجّه نائب الملك إلى الدير ليروي للرئيسة نتائج زيارته. وبعد ساعات من ذلك وهو على وشك الرحيل، وعلى الرغم من إلحاح زوجته، رفض العفو عن «مارتينا لا بوردي»، لأنّ ذلك يشكل سابقة

غير حسنة للكثير من المتهمين بجرائم ضدّ الإنسانية والمتواجدين في السجون.

بقي الأسقف منحنياً إلى الأمام، محاولة منه لاطفاء صفير تنفسه. أغمض عينيه، إلى ان عاد «دي لاورا». كان المساعدون قد انسحبوا على اطراف اقدامهم، وكانت القاعة معتمة. نظر الأسقف إلى ما حوله فرأى الكراسي خاوية مركونة إلى الجدار، ورأى «كايتانو» وحيداً في القاعة فسأله بصوت منخفض جداً:

- «هل رأينا من قبل رجلاً بهذه الطيبة؟».

ردّ «دي لاورا» عليه بإشارة غامضة. استرجع الأسقف قواه بحركة صعبة، وبقي متكئاً على مسند الكرسي إلى أن استطاع السيطرة على تنفسّه. لم يرغب في تناول طعام العشاء، واستعجل «دي لاورا» لإشعال قنديل لإنارة طريقه إلى غرفة النوم.

قال الأسقف:

- «كنّا في أسوأ حال امام نائب الملك».

فسأله «دي لاورا»:

- «وهل هناك ايّ موجب لنكون أحسن من ذلك؟. لا يمكن دقّ باب أسقف بدون إعلام رسمي».

لم يكن الأسقف متفقاً مع رأيه وحاول أن يوضح له ذلك بحيويّة كبيرة فقال له:

- «إنّ بابي هو باب الكنيسة. لقد تصرف نائب الملك كواحد من قدماء المسيحيين، أما أنا فلم أتصرف بشكل لائق بسبب المرض الصدري، وعليّ أن أفعل شيئاً لإصلاح الأمر».

وعند باب غرفة النوم كان الأُسقف قد غيّر نبرته وموضوعه وودّع «دي لاورا»، وهو يربت على كتفه بحنان وقال له :

- «أطلبْ لي المغفرة هذه الليلة، فإنّني أخشى أن تكون شديدة البعد».

وفعلاً، شعر كأنه يموت بفعل أزمة الربو التي أحسّ بها خلال الزيارة. وبما انّ استعمال مقيئ حبّ الملوك، والمهدّئات الحادة الأخرى لم يسكّن مرضه، فقد تقرر إجراء حجامة عاجلة له . وفي الصباح كان قد استعاد حماسه الطيب.

كان «كايتانو» ساهراً في المكتبة المجاورة، ولم يعلم بشيء مما جرى للأسقف. كان قد بدأصلواته الصباحيّة عندما أُبلغ أن الأُسقف في انتظاره في حجرة نومه. وجده يتناول الإفطار في السرير، وكان عبارة عن فنجان كبير من الشكولاته وخبز وجبن. بدا الأُسقف وهو يتنفّس وبهمة عالية كأنه منفاخ حدادة. أمّا «كايتانو» فقد اكتفى بنظرة واحدة إليه ليعلم أنّه اتّخذ قراره.

وفعلاً، وعلى عكس طلب رئيسة الدير ، قرر الأُسقف أن تبقى «سييرڤا ماريا» في دير «سانتا كلارا» ، وسيبقى «كايتانو دي لاورا» في منصبه وصياً عليها، مدعوماً بالثقة الكاملة. ولن تظل في السجن مثلما حصل حتى ذلك الوقت، وسيكون لها نصيب من الفوائد العامّة التي يتمتّع بها سكان الدير الآخرين. أيد الأُسقف ما ورد في المحاضر عن «سيرڤا»، غير انّ عدم جديّتها الكافية تعارض مع وضوح المهمّة، وعليه فإنّ معوّذها سيقوم بما يبدو له مفيداً وصالحاً. وأخيرا أمر «دي لاورا» بزيارة الماركيز باسمه، ومَنَحَهُ صلاحيات حل أية مشاكل ممكنة، وطلب إليه أن يبلغه استعداده لاستقباله إذا سمح له الوقت والصحّة.

قال الأسقف:

– «ليست هناك أيّة تعليمات أخرى».

وأنهى حديثه:

– «باركك الرب».

جرى «كايتانو» إلى الدير بقلب خافق، لكنه لم يعثر على «سييرڤا ماريا» في حجرة سجنها. كانت في قاعة الحفلات ، تلبس الكثير من الجواهر الحقيقية، وجديلتها المنثورة تصل إلى قدميها، جلست، بهيئتها الرقيقة، أمام رسّام شهير جاء مع موكب نائب الملك. بدت طاعتها للفنان جديرة بالإعجاب مثل جمالها. شعر «كايتانو» بالنشوة وهو ينظر إليها في الظلّ دون أن تراه، وكفاه الوقت لإزالة أيّ شك من قلبه.

وعند صلاة العصر كان رسمها قد تمّ إنجازه . أمعن الفنان النظر في رسمها عن بُعد، وختمه بحركتين أو ثلاث من فرشاته. وقبل أن يوقّعه ، طلب من «سييرڤا ماريا» أن تنظر إليه. كان الرسم صورة طبق الأصل عن الفتاة. ظهرت «سييرڤا» في الرسم واقفة وسط غيمة وبين موكب من الشياطين الخاضعين. تأملته على مهل فرأت فيه زهرة شبابها، وأخيراً قالت:

– « كأنّه مرآةّ ! ».

سألها الرسام:

– «حتى الشياطين؟».

أجابت:

– « هم كذلك أيضاً».

وبعد انتهائها من هذه المهمّة اصطحبها «كايتانو» إلى حجرة السجن . لم يكن قد رآها من قبل وهي تمشي . وكانت تسير بنفس اللطافة والسهولة التي رقصت بها، لا، ولم يرها أبداً برداء غير رداء السجن. بدت وهي ترتدي فستان الملكة أكبر عمراً وأكثر أناقة وظهرت، امرأة بالغة. لم يسيرا من قبل سوية ، فسعد هو كثيراً لبراءة الصحبة.

تغيرت حجرة سجنها، بفضل إصرار نائب الملك وزوجته اللذين أقنعا رئيسة الدير في زيارة الوداع بمعقوليّة آراء الأسقف. وضعت في الغرفة مرتبة جديدة وشراشف من الكتّان ووسادة من الريش. إلى ذلك أضيفت بعض الأدوات التي تستخدم في الحمام وللنظافة اليوميّة. دخل ضوء البحر من النافذة العارية من الصلبان الخشبية فتألق وسطع على الجدران الحديثة التجيير. وبما أنّ الطعام المقدّم إليها كان نفس طعام راهبات المنعزل، لم يكن «دي لاورا» بحاجة إلى حمل المأكولات إليها من الخارج. ومع ذلك هرّب «دي لاورا» لها بعض الأغذية اللذيذة التي تباع عند البوابات .

أرادت «سييرڤا ماريا» أن تشارك «دي لاورا» الوجبة المسائيّة، غير أنه اقتنع بقطعة من الكعك الذي اشتهرت الراهبات الكلاريسات بصنعه. وبينما جلسا يأكلان، قالت معلّقة بلا مناسبة:

– « لقد عرفت الثلوج» .

لم يجزع «كايتانو»، ففي أزمنة سابقة تحدث الناس عن نائب ملك أراد أن يجلب الثلوج من جبال البرانس لكي يراه السكان

المحليون، وكان يجهل أن الثلج موجود داخل البحر تقريباً، في «سيرانيڤادا دي سانتا مارتا».

قالت الطفلة:

– «لا ، لم أشاهد الثلج حقيقة، لقد شاهدته في الحلم».

وروت الحلم لـ«دي لاورا»:

«كنت أجلس قبالة نافذة فتساقط الثلج بشكل كثيف في الوقت الذي كنت أقطف فيه حبّات العنب واحدة بعد الأُخرى من العنقود الذي كان يحتضنني» .

شعر «دي لاورا» بالرعب ، وارتجف لتوقعه نهاية الحلم، ومع ذلك تجرأ وسألها:

– « وكيف انتهى؟».

– « أخاف أن أروي لك ذلك».

لم يكن بحاجة إلى أكثر مما قالت. أغمض عينيه وصلّى لأجلها. وعندما انتهى من صلاته كان قد تحوّل إلى شخص آخر.

قال لها:

– «لا تقلقي، أعدك بأن تكوني قريباً حرّة سعيدة بعفو من روح القدس».

لم تعلم «برناردا» حتى ذلك الوقت بوجود «سيرڤا ماريا» في الدير. عرفت بذلك، صدفة، في إحدى الليالي ، عندما شاهدت «دولثي أوليڤيا» تكنس وتنظّم المنزل؛ توهمت بداية أنها «سيرڤان»، أخذت تفتّش الغرف واحدة بعد أخرى، فانتبهت في تنقّلها إلى غياب «سيرڤا ماريا» منذ زمن طويل. قالت لها «كلاردا ديل كوبري» ما كانت تعرفه عن الطفلة:

- «أخبرنا السيّد الماركيز أنّ «سييرڤا ماريا» ذاهبة إلى مكان بعيد جداً، وانّنا لن نراها بعد الآن».

وبما أنّ النور كان مشتعلاً في غرفة نوم زوجها، دخلتها «برناردا» دون أن تدقّ الباب.

وجدته في الأرجوحة، بين دخان الروث المشتعل على نار هادئة لإبعاد البعوض. نظر إليها فرأى امرأة غريبة ترتدي صدرية حريرية، فظنّها شبحاً، لشحوبها وذبولها، وبدت كأنّها قادمة من بعيد. سألته «برناردا» عن «سييرڤا ماريا».

قال لها:

- «منذ أيام وهي ليست معنا».

فسّرت كلماته على الوجه الأسوأ، واضطرّت إلى الجلوس في أوّل مقعد وجدته أمامها لاسترجاع انفاسها.

قالت:

- «هذا يعني أنّ «أبرينونثيو» قد فعل بها ما كان ينبغي فعله».

أشار الماركيز إشارة الصليب وقال:

- «حاشا للربّ!».

قصّ عليها الواقعة حذراً في تفسيره لها ، وأخبرها أنه لم يعلمها في حينه بما حدث لأنّه أراد أن يعاملها حسبما كانت تريده هي نفسها، كما لو كانت ميتة أو غير موجودة. استمعت «برناردا» إلى كلماته من غير أن يرمش لها جفن ،وبإصغاء لم يسبق له مثيل في السنوات الاثنتي

عشرة من حياتهما المشتركة.

قال الماركيز:

- « كنت أعلم أنّها ستكلفني حياتي، ولكن حياتي فداء لحياتها».

تنهدت «برناردا» وقالت:

- « هذا يعني أنّ عارنا أصبح شائعاً».

رأت في جفني زوجها بريق الدموع، فبدأ الارتجاف يسيطر عليها إلى أن بلغ أحشاءها. لم يكن الموت ما يخيفه هذه المرّة، بل تيقنه ممّا سيحدث عاجلاً أو آجلاً. لم يخطئ في ذلك. نهض من الأرجوحة معتمداً على ما تبقّى له من قوّة وسقط أمامها ينشج نشيج شيخ لا فائدة فيه. استسلمت «برناردا» لنار دموعه التي نفذت إلى فخذيها، عبر الحرير. اعترفت، على الرغم من شدّة كرهها لـ «سييرڤا ماريا» ، بأنّ مجرّد معرفتها أنّها ما زالت حيّة يشكل فرجاً وراحة كبيرين لها ، وقالت:

- «إنّني أفهم كلّ شيء عدا الموت».

عادت إلى سجن نفسها في حجرتها ، لا تتناول سوى الدبس والكاكاو، وعندما خرجت بعد أسبوعين بدت جثّة متحركة. انتبه الماركيز إلى حركات توحي بالسفر في ساعة مبكرة، لم يعر ذلك أيّ اهتمام. وقبل أن ترتفع الشمس في السماء رأى «برناردا» تخرج من بوّابة الحوش على بغلة وديعة وتتبعها أخرى تحمل حوائج السفر. اعتادت الذهاب كثيراً على هذا الشكل، بدون بغّالين أو عبيد، ودون

أن تودّع أحدا أو توضح أسباب سفرها. غير أنّ الماركيز عرف أنّها ستذهب هذه المرّة بلا رجعة، لأنّها أخذت معها، إضافة إلى الصندوق المعتاد ، جرّتين مملوءتين بالذهب الصافي الذي كانت تخفيه مدفوناً تحت سريرها منذ أعوام طويلة.

عندما استلقى الماركيز في الأرجوحة بلا هم، توقّع فزِعاً إمكانيّة أن يطعنه العبيد بالسكاكين ، فمنع عليهم الدخول إلى المنزل حتى أثناء النهار. وهكذا وجد «كايتانو دي لاورا» نفسه مضطراً إلى دفع البوابة والدخول إلى المنزل دون إذن من أحد، فلا أحد أجاب نداءه، أو دقاته على الباب. قدم «دي لاورا» لزيارة الماركيز بأمر من الأسقف. هاجت كلاب الحراسة في أقفاصها لمرآه إلاّ أنّه استمرّ في طريقه . كان الماركيز بغلالته العربية وطاقيته الطليطليّة ينام ساعة القيلولة في أرجوحته بالبستان وهو مغطّى تماماً بأزهار شجرات البرتقال . نظر إليه «دي لاورا» دون أن يوقظه. بدا له أنه يرى «سيرڤا ماريا» وهي هرمة محطّمة بسبب الوحدة. استيقظ الماركيز، تأخّر في التعرّف عليه بسبب الكمادة التي تغطّي إحدى عينيه. رفع «دي لاورا» يده بأصابعها الممدودة أشارة إلى السلام.

قال :

– «ليرعاك الخالق، أيّها الماركيز». وأضاف: «كيف حالك؟».

أجابه الماركيز:

– «أتعفّن هنا».

أزال بيد شاحبة خيوط العناكب وجلس في الأرجوحة. اعتذر

«كايتانو» لدخوله دون استئذان، فقال له الماركيز إن أحداً لا يعير دقّات الباب أيّ اهتمام، بخاصةّ أنّه فقد عادة استقبال الزوار. تحدّث له «دي لاورا» بنبرة رسميّة وقال :

– «السيّد الأسقف مشغول جداً ويعاني من الربو وقد أرسلني لأقوم بتمثيله».

وبعد الانتهاء من البروتوكول المبدئي، جلس إلى جانب الأرجوحة وبدأ بالموضوع الذي كان يكوي أحشاءه، قال:

– «أودّ أن أعلمك أني كُلّفت برعاية الحالة الروحية لابنتك».

شكره الماركيز على ذلك وأراد أن يعرف حالتها. فقال «دي لاورا»:

– «لا بأس بحالتها، ولكنّني أريد مساعدتها لتكون أحسن».

شرح للماركيز معنى وأسلوب طرد الأرواح الشريرة ، وتحدّث إليه عن السلطة التي منحها السيد المسيح لتلامذته لطرد الأرواح الدنسة من الأجساد، ولشفاء الأمراض والهزال. قصّ عليه الحكمة الإنجيلية الخاصّة بـ «لِخّيون» والألفي خنزير المصابة بمسّ شيطاني. ورغم ذلك، قال «دي لاورا»:

– « إنّ الشيء الأساسي هو معرفة ما إذا كانت «سييرڤا ماريا» مصابة حقاً بمسّ».

لم يكن «دي لاورا» يعتقد ذلك ، إلاّ أنّه كان بحاجة إلى مساعدة الماركيز لتبديد أيّ شكّ لديه. قال له إنّه يريد أن يعرف كيف كانت الطفلة قبل دخول الدير.

أجابه الماركيز:

- «لا أعرف، أشعر أني أعرفها أقلّ كلّما زاد تعرّفي بها».

كان ذنب هجرها وتركها في فناء الخدم لتواجه مصيرها وحدها يعذّبه. علّل صمته الذي يدوم شهوراً في بعض الاحيان بهذا السبب؛ إنفجار عنفها اللامعقول ومكرها والسخرية من أمّها، وتعليقها الجرس الذي وضعته أمّها في معصمها في رقاب القطط وقال:

- « إن الصعوبة الكبرى في معرفتها تكمن في قدرتها على الكذب رغبة في التسلّي».

قال «دي لاورا»:

- «كما هي الحال عند السود».

قال الماركيز:

- « السود يكذبون علينا نحن، ولكنّهم لا يفعلون ذلك فيما بينهم».

وفي غرفة النوم ميّز «دي لاورا» بنظرة واحدة ما كان للجدّة من الأدوات الكثيرة ، وما كان لـ «سييرڤا ماريا» من أشياء جديدة: الدّمى الحيّة، وراقصات الزمبرك، وعلب الموسيقى. وعلى سريرها كانت الحقيبة التي هيأها لها الماركيز يوم ذهابها الى الدير لا تزال موجودة على، حالها وفي إحدى الزوايا شاهد عوداً مرمياً مغطى بالغبار. شرح الماركيز قائلاً: إنه آلة موسيقيّة إيطالية لم تعد مستعملة. وبالغ في ذكر مواهب الطفلة في العزف عليها. بدأ بتنظيف أوتار الآلة، ثمّ أخذ يغني من الذاكرة الأغنية التي اعتاد غناءها مع «سييرڤا ماريا» . كانت لحظات

معبّرة ، فقد قالت الموسيقى لـ «دي لاورا» ما لم يستطع الماركيز قوله عن ابنته. تأثّر الماركيز الى درجة لم يستطع معها اتمام الاغنية، وتنهّد قائلاً:

– « لا يمكنك ان أتصور مدى ملائمة القبّعة لها. إنّني على استعداد للتضحية بروحي من أجل رؤيتها».

شعر «دي لاورا» من جديد بأنّ روح القدس على علم بكلّ صغيرة وكبيرة مما جرى ويجري.

قال للماركيز:

– «لن يكون هناك شيء أسهل ، إذا استطعنا أن نبرهن أنّها غير مصابة بمسّ».

فأجابه هذا قائلاً:

– «تحدّث مع «أبرينونثيو» ، فقد قال منذ البداية إنّ «سييرڤا ماريا» سليمة، ولكنه هو وحده الذي يستطيع تفسير ذلك».

إنتبه «دي لاورا» إلى المفارقة المعقّدة. كان بإمكان «أبرينونثيو» أن يكون له عوناً كبيراً، غير أنّ التحدث معه قد يجلب له تعقيدات هو في غنى عنها. بدا الماركيز وكأنّه أدرك ما فكّر به «دي لاورا» وقال:

– «إنّه رجل عظيم».

أشار «دي لاورا» برأسه إشارة ذات معنى وقال:

– «أعرف ملفات محكمة التفتيش».

فقال الماركيز:

– «كلّ ما يمكن أن نفعله بهدف استرجاع الطفلة قليل بحقّها».

وبما أنّ «دي لاورا» لم تبدُ عليه أيّة علامة خاصّة، ختم الماركيز قائلاً:

- «أرجوك أن تفعل ذلك في سبيل الربّ».

أجابه «دي لاورا» بقلب ممزّق:

- «أتوسّل إليك، لا تجعلني أتعذّب أكثر».

لم يلحّ عليه الماركيز أكثر. تناول الحقيبة من على السرير وطلب من «دي لاورا» أن يحملها إلى ابنته قائلاً:

- « ستعلم على الأقلّ أنّي أفكّر بها».

هرب «دي لاورا» كئيباً دون أن يودع الماركيز. أخفى الحقيبة تحت ردائه الذي التفّ به للوقاية من المطر الغزير الذي تساقط. ولم ينتبه إلاّ متأخراً إلى صوته الداخلي الذي ردّد أبياتاً منفردة من أغاني العود الإيطالي. أخذ يغنيها بصوت مرتفع . ضايقه المطر، ثمّ ردّدها في ذاكرته حتى نهايتها.

وصل آنذاك حيّ الصنّاع فانعطف إلى يسار الكنيسة الصغيرة وهو لا يزال يغنّي، ودقّ على باب «أبرينونثيو».

بعد صمت طويل سمع صوت خطوات عرجاء وصوت شخص نصف نائم:

- « من بالباب؟».

أجاب «دي لاورا»:

- « القانون».

كلمة القانون هي الكلمة الوحيدة التي خطرت بباله لئلاّ يصرّح بذكر اسمه. فتح «أبرينونثيو» الباب ظنّاً منه أنّ اناساً من الحكومة جاؤوا فعلاً لزيارته. قال «دي لاورا»: «أنا أمين المكتبة الأسقفية». أفسح له الطبيب الطريق ليدخل الدهليز المظلّل، وساعده على خلع الرداء المبلول بالمطر . وعلى طريقته الخاصّة سأله باللغة اللاتينيّة:

- « في أيةّ معركة فقدت هذه العين؟».

قصّ عليه «دي لاورا»، بلغته اللاتينية الكلاسيكيّة، حادثة الكسوف، وتحدّث عن تفاصيل مقاومة الألم، رغم أنّ طبيب الأسقف أكّد له أنّ الكمادة مضمونة الفائدة. لم ينتبه «أبرينونثيو» إلاّ إلى صفاء لغته اللاتينيّة، فقال:

- «لغتك صحيحة بشكل مطلق، من أين أنت؟».

- «من أبلا».

- «وهذا يستحقّ تقديراً أكثر».

جعله «أبرينونيثو» يخلع رداءه الداخلي وخفّيه وتركها لتجف من الماء. وألقى معطفه العتيق على سرواله الذي أعاق سيره لرطوبته. وبعدها نزع الكمادة عن عينيه وألقاها في سلّة القمامة قائلاً:

- « إنّ الشيء السيّئ الوحيد في هذه العين ، هو أنّها ترى أكثر ممّا ينبغي لها».

إنتبه «دي لاورا» إلى كميّة الكتب المتراكمة في الصالة. لاحظ «أبرينونثيو» ذلك فقاده إلى الصيدلية التي حوت كتباً أكثر اصطفت في رفوف عالية تصل إلى السقف.

قال «دي لاورا»:

- «يا لروح القدس!. هذه مكتبة بترارك!».

أجابه «أبرينونثيو»:

- «ولكن أكثر بمئتي كتاب».

تركه يشبع فضوله على ذوقه. كان يملك نماذج وحيدة من الكتب يمكن أن يؤدي تملّكها إلى السجن في إسبانيا. كان «دي لاورا» يعرفها ويتصفّحها بشهيّة ويعيدها إلى أماكنها على الرفوف بروح متألّمة. وفي مكان بارز وقف كتاب «فراي خيروندديو» الأزلي إلى جانب «ڤولتير» بأعماله الكاملة بالفرنسية، وترجمة الى باللاتينية لكتاب «رسائل فلسفية».

قال مازحاً:

– «ڤولتير باللغة اللاتينية، إنّما هو بدعة تقريباً».

حكى «أبرينونثيو»له أنّ راهباً من «كوئيمبرا» قام بالترجمة، وأنه كان يسرف ويبذخ في عمل كتب غريبة لتسلية زوّار الأماكن المقدسة. وبينما شرع «دي لاورا» يتصفّح الكتاب، سأله الطبيب عمّا إذا كان يعرف الفرنسية.

– «لا أتكلّمها ولكنّني أقرأها».

وأضاف بتواضع لا ينمّ عن أيّ زيف:

– «وكذلك اليونانية، والإنجليزية، والإيطالية، والبرتغالية، والقليل من الألمانية».

– «أسألك هذا لما قلته عن «ڤولتير». إن كتابته نثر في غاية الكمال».

– «وهو الشيء الذي يؤلمنا أكثر. من المؤسف أن يكون المؤلف فرنسيّاً».

– «أنت تقول ذلك لكونك إسبانياً».

قال «دي لاورا»:

– «بعمري ، وبفعل كثرة اختلاط الدماء، لم أعد أعرف على وجه التأكيد من أين أنا، ولا من أنا».

قال «أبرينونثيو»:

– «لا أحد يعرف ذلك في هذه الممالك، وأظنّ أنّهم سيحتاجون إلى قرون لمعرفته».

كان «دي لاورا» يتحدّث وهو يتفحّص المكتبة ، وفجأة وكما اعتاد بين الحين والآخر تذكّر الكتاب الذي صادره منه العميد بالمعهد اللاهوتي، عندما كان عمره اثني عشر عاماً، والذي لم يكن يتذكر منه سوى فصل واحد كان يكرّره على مسمع كلّ من يستطيع مساعدته.

سأله «أبرينونثيو»:

– «وهل تتذكّر العنوان؟».

– « لم أعرفه مطلقاً، وإنّي مستعدّ لدفع أيّ ثمن لمعرفة نهايته».

ودون سابق إنذار ، وضعه الطبيب أمام كتاب تعرّف عليه من النظرة الأولى. كان طبعة إشبيليّة قديمة من الكتب الاربعة لـ «أماديس دي گاولا». تفحّصه «دي لاورا»، وهو يرتعش وانتبه إلى أنّ الكتاب كان على وشك التلف . وأخيراً تجرأ وقال:

– «هل تعلم أنّ هذا الكتاب ممنوع؟».

أجابه «أبرينونثيو»:

– «مثله مثل أفضل روايات هذا القرن. وبدلاً منها لا تُطبع اليوم سوى رسائل لرجال متضلّعين في العلم. ما الذي يقرأه الناس المساكين اليوم، إذا لم يقرأوا خفية روايات الفروسية؟».

- «يوجد غيرها، مئة نسخة من طبعة الأمير لكتاب «دون كيشوت» تمّت قراءتها هنا في نفس العام الذي طُبعت فيه».

قال «أبرينونثيو»:

- «لم تُقرأ، بل عبرت من نقطة الجمارك نحو الممالك المختلفة».

لم ينتبه «دي لاورا» إلى كلامه لأنّه تعرّف على النسخة الثمينة من كتاب «أماديس دي گاولا».

قال «دي لاورا»:

- «اختفى هذا الكتاب منذ تسع سنوات من القسم السرّي لمكتبتنا، ولم نعثر على أيّ أثر له مطلقاً».

فردّ عليه «أبرينونثيو» قائلاً:

- «كان عليّ أن أتخيّل ذلك. ولكنّ هناك أسباباً أخرى لاعتباره نسخة تأريخية: مرّ خلال ما يزيد على عام من يد إلى أخرى، فيما يقارب أحد عشر شخصاً، مات منهم ثلاثة في الأقلّ. إنّني متأكّد أنّهم ضحايا شرير مجهول».

- «إنّ من واجبي أن أخبر محكمة التفتيش».

اعتبر «أبرينونثيو» كلامه مزاحاً.

قال «دي لاورا»:

- «هل تلّفظت بدعة؟ أقول هذا لاطلاعي هنا على كتاب ممنوع وغريب ولعدم الابلاغ عنه».

قال «أبرينونثيو»، مشيراً بسبابته، وبحركة منها على شكل دائرة

واسعة إلى رفوفه المكتظّة:

– «هذا وغيره كثير».

– «ولكن لو كان الأمر هكذا لكنت قد حضرت منذ زمن بعيد، ولما كنت فتحت لك الباب».

إلتفت نحوه وختم كلامه طلق المحيّا:

– «في حين إنّني سعيد بمجيئك الآن وبرؤيتك هنا».

قال «دي لاورا» :

– «طلب مني الماركيز أن أزورك ، وهو شديد الشوق لمعرفة مصير ابنته».

اجلسه «أبرينونثيو» قبالته وأخذ الاثنان يتجاذبان أطراف الحديث، في الوقت الذي هزت فيه عاصفة هائلة البحر. قدّم الطبيب استعراضاً ذكيّاً عليماً عن مرض داء الكَلَب منذ بدء الخليقة ، وعن أضراره القاسية، وعن عجز الطبّ منذ آلاف السنين عن منع تلك الأضرار. ضرب أمثلة مؤسية على كيفيّة توهّم هذا المرض منذ القدم مع الإصابة بمسّ شيطانيّ، أو مع أنواع أخرى من الجنون والاضطراب الروحي. وقال:

»وفيما يتعلق بـ «سييرڤا ماريا»، فإنّها وبعد ما يقارب المئة وخمسين يوماً من عضتّها، لا يمكن أن تكون مصابة به. والخطر الوحيد الكائن هو أن تموت من قسوة المعوّذين كما حصل مع كثيرين».

بدت الجملة الأخيرة لـ «دي لاورا» من المبالغات الطبيّة للعصر الوسيط، غير انّه لم يناقشها، لأنّها تخدم مبادئه اللاهوتية التي تؤكّد أنّ

الطفلة لم تكن مسكونة بأرواح شرّيرة. وقال:

«إنّ اللغات الأفريقية الثلاث التي تتحدّثها «سييرڤا ماريا»، والمختلفة كثيرا عن الإسبانية والبرتغالية، ليس فيها، بأيّ شكل من الأشكال، أيّة ظاهرة شيطانية ممّا يُنسب إليها في الدير. كانت هناك شهادات عديدة تؤكّد أنّها تتمتّع بقوّة جسدية مميزة، إلاّ انّه لا توجد حتى شهادة واحدة تؤكّد أنّ لها قوّة خارقة للطبيعة. وهي لم تقم بأيّ حدث خارق ولم تتكهن بالمستقبل ، وهاتان ظاهرتان يمكن أن تكونا برهاناً على كونها قدّيسة».

رغم ذلك فقد كان «دي لاورا» يحاول كسب دعم جمعيات شهيرة وفئات أخرى ، ولم يتجرأ أحد على نقد محاضر الدير، أو معارضتها أو الوقوف ضدّ القسوة الشعبية. غير أنّه كان واعياً بأنّه لا إرادة «أبرينونثيو» ولا آرائه يمكن ان تقنع أي أحد ، واقلّ من ذلك إذا اجتمعا سويّة.

قال «دي لاورا»:

- «سنكون أنا وأنت ضدّ الجميع» .

فأجابه «أبرينونثيو»:

- «لهذا دُهشت لحضورك، فأنا لست سوى طريدة ثمينةفي حقل صيد محكمة التفتيش».

- « في الواقع إنّني لا أعرف بالضبط لماذا جئتُ ، فلربما فُرضت عليّ هذه المخلوقة من طرف الروح القدس».

كانت هذه الجملة كافية لتحرّره من سلسلة التنهيدات التي ضايقته. نظر «أبرينونثيو» إلى عينيه ففهمه بعمق، وانتبه إلى أنّه على وشك البكاء.

قال له بنبرة مهدّئة:

- « لا تتعذّب بلا جدوى، ربّما جئتَ لمجرّد شعورك بالحاجة للتحدّث عنها».

شعر «دي لاورا» نفسه عارية. وبحث عن الطريق المؤدي إلى الباب ولم يفرّ هارباً، لأنّه لم يرتد جميع ملابسه التي جاء بها. ساعده «أبرينونثيو» على ارتداء بقية ملابسه التي كانت لا تزال مبلولة. فعل ذلك ببطئ رغبة في تأخيره وبغية الاستمرار بالحديث.

قال له:

- «أنا على استعداد للتحدّث معك حتى القرن القادم».

وحاول تأخيره أكثر باعطائه زجاجة من القطرات الشفافة لمداواة آثار الكسوف في عينيه. وجعله يعود من الباب للبحث عن الحقيبة التي نسيها في أحد أركان المنزل . بدا «دي لاورا» وكأنّه رهين ألم قاتل. شكر للطبيب تلك الامسية والمساعدة الطبيّة والقطرات التي قدمها، والشيء الوحيد الذي وعد به هو عودته في يوم آخر ولوقت أطول.

لم يستطع مقاومة رغبته الجارفة لرؤية «سييرڤا ماريا». لم ينتبه إلى أن الليل قد أرخى سدوله إلاّ عندما وصل إلى باب الدير. كان المطر قد توقف لتوه وفاضت المجاري بفعل العاصفة، ومع ذلك سار «دي لاورا» في وسط الشوارع التي بلغت مياهها الكعبين. حاولت الراهبة المناوبة منعه من الدخول، لاقتراب ساعة حظر التجوّل فأبعدها عن طريقه قائلاً:

- « بأمر من السيّد الأسقف ».

استيقظت «سييرڤا ماريا» خائفة ولم تعرفه في الظلام. لم يعرف كيف يفسّر لها مجيئه في ساعة غير معتادة. طرأت بذهنه حجّة، فقال:

- « يريد أبوك أن يراك».

عرفت الطفلة الحقيبة فاشتعل وجهها غضباً.

- « ولكنّني لا أريد رؤيته».

سألها مضطرباً عن السبب ، فأجابته:

- «لا أريد، إني أفضّل الموت».

حاول «دي لاورا» حلّ سيور كعبها السليم ظناً منه أنّ ذلك يرضيها.

- «أتركني، لا تلمسني» .

لم يعر قولها أيّ اهتمام فبدأت تطلق من فمها سيلاً من البصاق على وجهه. بقي ثابتاً في مكانه وعرض عليها خدّه الآخر ، استمرّت «سييرڤا ماريا» تبصق على وجهه، وعاد لعرض خدّه الآخر عليها منتشياً ببخار اللذة الممنوعة التي ارتفعت من أحشائه. أغمض عينيه وصلّى من أعماق روحه، في حين أنّها استمرّت تبصق بحدّة أكبر ممّا زاد من تمتّعه. وعندما انتبهت إلى عدم جدوى غضبها توقفت. آنذاك أدرك «دي لاورا» أنّه حضر عرضاً مرعباً لمجذوبة حقيقية. هاجت جدائل «سييرڤا ماريا» وكأنّها كائن حيّ مثل أفاعي «ميدوزا» ، وخرج من فمها لعاب أخضر وسيل من الشتائم ، وكأنّها صادرة عن لسان

وثنيّ. حرّك «دي لاورا» صليبه وقرّبه من وجهها وصرخ مرتعباً:

- « أخرج من هناك ، لتكن من تكون يا وحش الجحيم!».

أهاجت صرخاته الطفلة التي كانت على وشك تحطيم أبازيم السيور. حضرت الحارسة فزِعة وحاولت إخضاعها، ولم تتمكن من ذلك إلاّ «مارتينا» بطرقها السماويّة ، وهرب «دي لاورا».

إضطرب الأسقف لعدم وصول «دي لاورا» للقيام بقراءة العشاء. إنتبه إلى أنّ هذا كان يحوم في غيمة شخصيّة ولم يهتمّ بشيء يخصّ هذا العالم أو العالم الآخر، باستثناء صورة «سييرڤا ماريا» المرعبة والمنحطّة بفعل الشيطان. هرب «دي لاورا» إلى المكتبة لكنّه لم يستطع القراءة. صلّى بإيمان ساخط وغنّى أغنية العود الإيطالي وبكى بدموع حارقة كوت أحشاءه. فتح حقيبة «سييرڤا ماريا»، ورتّب الأشياء الموجودة فيها على المنضدة. عرفها وشمّها برغبة وبنهم جسديّ. أحبّها وتحدّث إليها بأبيات شعرية فاحشة إلى أن تعب. حينذاك عرّى نصفه الاعلى وأخرج من درج المنضدة السوط الحديديّ الذي لم يتجرأ على لمسه مطلقاً، وأخذ يضرب نفسه بكُره لا يرتوي . لم يرغب في منح نفسه أيّة هدنة حتى ينزع من أحشائه آخر أثر من آثار «سييرڤا ماريا». الاسقف الذي كان في انتظاره ، عثر عليه يتمرّغ في وحل من الدم والدموع.

قال له «دي لاورا»:

- «إنّه الشيطان ، يا أبي. إنه الأشدّ رعباً من كل الأشياء».

(٥)

دعا الأسقف إلى اجتماع في مكتبه واستمع بانتباه إلى اعترافه الصريح والكامل . وعى الأسقف أنه لم يكن يعالج معه أمراً دينياً ، بل مهمّة قضائيّة. كانت نقطة ضعفه الوحيدة معه هي كيفية إبقاء ذنبه طيّ الكتمان، ولكنّه نزع عنه ميزاته وصلاحياته دون ذكر الأسباب بشكل علني، وأرسله ليعمل ممرّضاً للمصابين بالجذام في مستشفى «أمور دي ديوس» . رجاه «دي لاورا» أن يسمح له ، من باب السلوان، إدارة قداس الصلاة الخامسة للمصابين بالجذام، فسمح له الاسقف بذلك. جثم على ركبتيه شاعراً بسكينة عميقة، وصلّيا معاً صلاة ربّانيّة. باركه الأسقف وساعده على استرجاع قواه.

قال له:

- «ليرعاك الخالق»

وقرّر نسيانه تماماً.

بعد البدء بتنفيذ العقوبة ، تدخّل الكثير من اصحاب المناصب بالاسقفية لصالح «كايتانو دي لاورا»، غير أنّ الأسقف لم يتراجع عن

قراره، واستبعد النظرية التي تقول إنّ المُعوّذين ينتهون إلى دخول الشياطين التي يحاولون طردها من الأجسام الأخرى إلى أجسامهم الخاصّة. وكان رأيه الأخير أنّ «دي لاورا» لم يواجه «سييرڤا» بدقّة، ولم يستعن بسلطة السيِّد المسيح التي لا يمكن نسيانها، بل تهوّر في مجادلاته عن الإيمان. وهذا ما أوقع روحه في شرك. قال الأسقف، الأمر يصل إلى حافّة الإلحاد. والشيء المدهش في الأمر هو قسوة الأسقف على رجل منحه الثقة لاقترافه ذنباً، لم يكن يستحقّ معه، في كلّ الاحوال، أكثر من كفّارة بشموع خضر .

أسند إلى «مارتينا» أمر «سييرڤا ماريا». قامت بذلك بتفانٍ شديد نموذجي. كانت هي أيضاً حزينة لرفض طلب العفو عنها ، غير انّ الطفلة لم تدرك ذلك إلى أن رأتها في إحدى أمسيات التطريز على السطح وهي غارقة في دموعها. لم تُخفِ «مارتينا» يأسها وقالت:

– «أفضّل أن اكون ميتة على أن أموت ببطئ في هذا الحبس».

كان أملها الوحيد، حسب قولها، أن تعرف كيف تعامل «سييرڤا ماريا» شياطينها. أرادت أن تعرف من هم وكيف هم وطريقة التعامل معهم؟. عدّدت الطفلة ستّة منهم، ولم تعرف «مارتينا» سوى واحد، وكان شيطاناً افريقياً أثار الاضطراب في بيت أبويه. وها هو أمل جديد يثير حماستها.

قالت:

– «أريد التحدّث معه»

ثمّ حدّدت طلبها:

« مقابل إعطائه روحي».

تلذذت «سييرڤا ماريا» بخبثها وقالت:

- «إنّه لا يتكلّم. ينظر أحدنا إلى وجهه فيعرف ماذا يقول».
ووعدتها بجدّية تامّة أن تدعوها لمقابلته عند الزيارة المقبلة.

خضع «كايتانو» من جانبه بتواضع لشروط المستشفى السيّئة. فالمجذومون المقبلون على الموت كانوا ينامون على الارض في أكواخ من الجريد ذات أرضيّة ترابيّة مستوية. وكان الكثيرون منهم يسحلون أنفسهم حسب الطاقة المتبقية لديهم. كانت أيام الثلاثاء، وهي أيام العلاج العام، أياماً مرهقة. عاهد «كايتانو» نفسه على القيام بتضحية تطهيرية بغسل أجساد المُقعدين منهم في حوض الاصطبل. إنهمك بذلك يوم الثلاثاء الأُول للتكفير، وقد تحوّلت هيبته كراهب إلى مجرّد ثوب خشن لمرّض، وحينذاك ظهر «أبرينونثيو» راكباً حصانه الذي أهداه له الماركيز.

سأله :

- «كيف حالة هذه العين؟» .

لم يترك له «كايتانو» أيّ مجال للتحدّث عن مصيبته او مشاكله وآلامه التي جلبتها له حالته الجديدة. شكره على القطرة التي أزالت بالفعل آثار صورة الكسوف عن شبكيته. قال «أبرنيو نثيو»:

«لا شكر على واجب لقد أعطيتك أفضل دواء معروف لمعالجة آثار الشمس : قطرات من ماء المطر».

ودعاه لزيارته .فقال له «كايتانو» أنّه لا يستطيع الآن الخروج الاّ برخصة. لم يعر «أبرينونثيو» ذلك أيّ اهتمام وقال له:

- «إذا كنت تعرف نقاط ضعف هذه الممالك، فانّك ستعلم أنّ القوانين لا تنفّذ لأكثر من ثلاثة أيام».

عرض عليه أن يضع مكتبته في خدمته فيستمرّ في دراساته إلى أن يبتّ في قضيته. إستمع اليه «كايتانو» باهتمام لكنّه لم يعلّق على ذلك ايّ امل.

قال «أبرينونثيو» وهو يهز حصانه:

- «هناك، اترك لك ذلك الشوق» وأضاف: «لا يوجد أيّ إله يخلق موهبة مثل موهبتك لمجرد دعك المجذومين».

وفي يوم الثلاثاء التالي حمل إليه ، هديةً، مجلّد «رسائل فلسفيّة» باللاتينية. تصفّحه «كايتانو» وشمّه من الداخل وقدّر ثمنه. شعر أنه كلّما زاد تقديره لـ «أبرينونثيو»، قلّ فهمه لشخصه.

- « أودّ أن أعرف لماذا تحاول إرضائي بهذا القدر!».

- «لأنّنا ، نحن الملحدين، لا نتمكّن من العيش دون رجال الدين، فالمرضى يكلفوننا بأجسادهم لا بأرواحهم ، فنتصرّف مثل الشيطان ، متبارين عليها أمام الخالق».

- «وهذا يخالف معتقدك».

- « حتى أنا لا أعرف ما هي معتقداتي».

أجاب «كايتانو»:

- « محكمة التفتيش تعرفها جيّداً».

على عكس الظنون شجع ذلك القول اللاذع «أبرينونثيو» فقال:

- «تعال إلى بيتي وسنتناقش في هذا الأمر على مهلنا، فأنا لا أنام اكثر من ساعتين في الليل ، وبصورة متقطّعة دائماً ولذا فإنّ ايّ وقت مناسب لي».

همز حصانه وابتعد.

أدرك «كايتانو» عاجلاً أن السلطة الكبيرة لا تُفقد جزئياً، إذ أنّ نفس الاشخاص الذين كانوا يتودّدون إليه لحظوته، يتجنبونه الآن كما لو كان مصاباً بالجذام، وابتعد اصدقاؤه من رجال الفنّ والأدب عنه خوفاً من مراقبة محكمة التفتيش. لكنه لم يقلق لذلك فهو لا يملك إلا قلباً واحداً، وهبه لـ «سييرڤا ماريا». كان متأكّداً أن لا المحيطات ولا الجبال، ولا القوانين الأرضية أو السماوية، ولا السلطات الجهنّميّة بقادرة على فصلهما.

وفي إحدى الليالي، هتف به وحي فهرب من المستشفى وحاول التسلّل الى الدير. كانت للدير أربعة ابواب: الرئيسيّ الذي حاذى غرفة المحادثة؛ وآخر بنفس الحجم إلى جانب البحر، وبابان صغيران للخدمة. لم يكن من السهل اجتياز البابين الأول والثاني . استطاع تمييز نافذة «سييرڤا ماريا» بسهولة من الشاطئ، وهي إحدى نوافذ سرادق السجن، وكانت النافذة الوحيدة التي لم تعد محتجزة بصلبان خشبية. تفحّص البناء شبراً شبراً من الشارع بحثاً عن ثغرة صغيرة فيه للتمكن من تسلّقه.

كان على وشك الاستسلام عندما تذكّر النفق الذي كان سكّان الدير يتزودّون من خلاله بالمؤونة خلال الحصار . فلقد كانت الأنفاق خاصيّة معروفة في الاديرة والمعسكرات في تلك الفترة . وكان هناك ما لا يقلّ عن ستة أنفاق في المدينة وأخرى تمّ اكتشافها بمرور السنوات، بما يرافقها من قصص وروايات.

كشف مجذوم عمل ترابياً من قبل، لـ «كايتانو» ما بحث عنه: ممر مهجور يوصل الدير بقطعة أرض مجاورة كانت في القرن الماضي

مقبرة للكلاريسات الأوائل. امتد تحت سرادق السجن ، قبالة جدار مرتفع خشن وكان يبدو صعب التجاوز. ومع ذلك استطاع «كايتانو» تسلّقه بعد عدّة محاولات خائبة ، واعتقد أنّه سيتجاوز كلّ الصعوبات بتأثير صلواته.

كان السرادق كبحيرة راكدة في ساعات الفجر، ولأن «دي لاورا» يعرف أنّ الحارسة تنام في الخارج، احترس من «مارتينا لا بوردي» التي نامت تشخر وبابها نصف مفتوح. حتى هذه اللحظة سيطر توتّر المغامرة عليه، وعندما وجد نفسه أمام حجرة سجن «سييرڤا ماريا» المفتوحة الباب، كاد قلبه يخرج من صدره. دفع الباب بأطراف أصابعه، وكتم أنفاسه لما صرّت مفاصل الباب. رأى «سييرڤا ماريا» نائمة على ضوء شموع القربان المقدّس. فتحت عينيها بشكل مفاجئ غير انّها تأخّرت في التعرّف عليه وهو يرتدي الثوب الكتاني لمرضي المجذومين.

أطلعها على أظافره الدامية وقال لها هامساً:

– «لقد تسلّقت الجدار».

لم تتأثّر «سييرڤا ماريا» ، وقالت:

– «لماذا؟».

– «لكي أراك».

ولم يجد كلمات أخرى يقولها لذهوله وارتعاش يديه واضطراب صوته.

قالت له «سييرڤا ماريا»:

– «إذهب».

أشار برأسه عدة مرّات اشارة النفي خوفاً من أن يخونه صوته.

قالت من جديد :

- «إذهب وإلاّ سأصرخ».

إقترب منها إلى درجة انّه كان بإمكانه أن يشعر بتنفسها الهادئ.

- «لن أذهب حتى وإنْ قتلوني».

وفجأة شعر بزوال الرعب عنه فأضاف بصوت ثابت:

«وعليه وإنْ كنت تنوين الصراخ فابدئي الآن».

عضّت شفتيها . جلس «كايتانو» على السرير وقصّ عليها موضوع عقوبته بالتفصيل دون أن يوضّح لها الأسباب. نظرت إليه دون ارتياب وسألته لماذا لم تعد عينه مغطّاة بكمّادة.

قال متحمّساً:

- «لم تعد عيني بحاجة إليها. والآن اغمضُ عينيّ فأرى جديلة كأنّها نهر من ذهب».

وبعد مرور ساعتين غادر فرِحاً لانّ «سييرفا ماريا» وافقت على عودته، بشرط أن يحمل إليها حلواها المفضلة التي تُباع عند البوابة. وصل في الليلة التالية مبكراً إلى الدير فوجد الحياة تدبّ فيه. ما زال قنديل «سييرفا ماريا» منيراً ، فهي تريد إنهاء التطريز الذي كلّفته بها «مارتينا». وفي الليلة الثالثة، حمل معه فتائل وزيتاً لإشعال النور. وفي الليلة الرابعة، السبت، بقي معها عدة ساعات يساعدها على تفلية شعرها وإزالة القمل منه فقد عاد للتكاثر في السجن. وعندما صارت الجديلة نظيفة ممشوطة، شعر من جديد بعرق هواجسه البارد. إضطجع إلى جانبها، تنفسا بتناوب، ووجد عينيها الصافيتين على بعد شبر من عينيه. أصيب الاثنان بالذهول . تجرّأت على الحديث فسألته:

- «كم عمرك؟».

- «أتممت ستاً وثلاثين في شهر آذار».

تفحصته وقالت بشيء من المزاح:

- «ها إنّك رجل هرِم».

إنتبهت إلى تجاعيد جبهته وأضافت بكلّ قسوة عمرها الفتي:

- «هرم مجعّد».

إستقبل كلامها بلطف، وسألته «سييرڤا ماريا» عن سبب وجود خصلة بيضاء في شعره.

- «إنّها علامة حسن».

- «للزينة؟».

- «بل طبيعيّة، أمّي أيضاً كانت لها علامة حسن مشابهة».

حتى ذلك الحين لم يكف عن النظر إلى عينيها ، لكن أيّة علامة استسلام لم تبد عليها .

تنهّد بعمق وردد بيت شعر من الذاكرة: «آه، يا نفائسي التي عثرت عليها في غير وقتها».

لم تفهم قوله فأردف:

- «إنّه بيت شعر لجدّ جدّ جدّتي، لقد كتب ثلاث قصائد رعوية، ومرثيتين، وخمس أغانٍ، وأربعين قصيدة، وكتب أغلبها لامرأة برتغالية لم تملك فضائل كبيرة، ولم تصبح له مطلقاً ، أولاً لأنّه كان متزوجاً ، ولأنّها تزوجت من رجل آخر وماتت قبله».

- «وهل كان راهباً أيضاً؟».

- «بل جندياً».

تحرّك شيء ما في قلب «سييرڤا ماريا» ، إذ انّها أرادت أن تسمع البيت من جديد. اعاده عليها، وقرأه هذه المرّة بلفظ واضح وصوت حادّ، وأكمل القصيدة كلها التي كانت واحدة من القصائد الأربعين التي نظمها رجل الحبّ والحرب السيّد «گارثيلاسو دي بيگا»، المتوفى في زهرة شبابه لوقوع حجر على رأسه أثناء الحرب.

وعندما انتهى «كايتانو» من إلقاء الشعر، تناول يد «سييرڤا ماريا» ووضعها على قلبه ، فشعرت بدوي عذابه.

قال لها :

- «إنّني هكذا دائماً».

ودون أن يترك للخوف طريقاً إلى قلبه، وبعد أن تحرّر من القيود التي أعاقت حياته، اعترف لها بانّه لا يعيش لحظة من غير أن يفكّر فيها، وانّه عندما يأكل أو يشرب، يجد طعمها هي في كلّ ذلك، فهي التي ملأت عليه حياته في كلّ الأوقات والأمكنة، مثلها في ذلك مثل الخالق الذي يملك وحده حق الزمان والمكان. قال لها إنّ سعادة قلبه الكبرى ستكون في موتهما معاً. واستمرّ في الحديث بنفس لباقة قراءته الشعرية وحرارتها دون أن ينظر إليها، إلى أن شعر أنّ «سييرڤا ماريا» قد نامت. غير أنّها ، في الواقع، لم تنم وظلت يقظة تحدّق إليه بعيني غزالة مرتبكة. لم تتجرأ إلاّ بصعوبة على سؤاله:

- «والآن؟».

- «والآن، لا شيئ، يكفي أن تعلمي ذلك».

لم يتمكّن من الاستمرار . وضع يده تحت رأسها كالوسادة وأخذ يبكي بصمت. التصقت به، وظلاّ على هذه الحال دون أن يناما أو يتحدّثا إلى أن بدأت الديكة بالصياح. وجد نفسه مضطراً للمغادرة على عجل للوصول إلى صلاة الخامسة. وقبل مغادرته أهدته «سييرڤا ماريا» عقدها الثمين : ثماني عشرة بوصة من خرز الصدف والمرجان.

حلّت هموم القلب محل الفزع. لم يهدأ لـ «دي لاورا» بال فأخذ يفعل الأشياء بأيّة طريقة كانت ، حائماً حتى حلول الساعة السعيدة التي يهرب فيها من المستشفى للقاء «سييرڤا ماريا».

كان يصل لاهثاً إلى حجرة سجنها مبللاً بماء المطر، وكانت هي تنتظره بشوق شديد ، فمجرّد ابتسامة منه تعيد لها الحياة. وفي إحدى الليالي بادرت هي في قراءة الأبيات الشعرية التي حفظتها لكثرة سماعها:

- « عندما أقف متأملاً حالي، وأرى خطواتي، من حيث جئت لي...».

توقفت وسألته بخبث:

- «ما هي تكملة البيت؟».

أجابها:

- « أنا سأنتهي إلى تسليم نفسي بلا فنّ لمن يجيد فقداني وإنهائي».

كرّرته هي بنفس الحنان، واستمرّا هكذا حتى نهاية الديوان، قافزين عن بعض الأبيات ومحرّفين أخرى ومغيرين القصائد حسب المزاج ولاعبين بها مثلما يشتهيان بكفاءة عالية، فناما من التعب. دخلت الحارسة تحمل الفطور عند الساعة الخامسة في وسط جلَبة الديكة.

استيقظ الاثنان مرتعبين، وأوشك قلباهما أن يتوقفا. وضعت الحارسة الفطور على المائدة وقامت بتفتيش روتيني بمصباحها وخرجت دون أن ترى «كايتانو» في السرير.

قال ساخراً عندما استعاد أنفاسه:

– « إبليس كائن لعين!، أنا أيضاً صرت غير مرئيّ».

رأت «سييرڤا ماريا» نفسها مضطرة إلى شحذ مكرها كي لا تعود الحارسة لدخول حجرتها في ذلك اليوم. وفي اواخر الليل وبعد فترة طويلة من العبث والمداعبة ، شعرا كأنّهما عاشقان منذ زمن بعيد. وتجرأ «كايتانو»، بين المزاح والجدّ، على حلّ عقدة صديرتها. صمت صدرها بيديها وظهر للحظة بريق غضب في عينيها واشتعلت ومضة حياء في جبينها. قبض «كايتانو» على يديها بإبهام وسبابة يتحرّقان شوقاً ، وأبعد يديها عن صدرها . حاولت مقاومته إلاّ أنّه أجبرها على الاستسلام.

قال لها :

– «أعيدي معي، وأخيراً جئت إلى أحضانك».

أطاعته فردد: «عالماً بأنّه المكان الذي لا بدّ أن أموت فيه». واستمرّ بالكلام بينما كان يُرخي العُقد الباقية لصديرتها بأصابعه المتجمّدة. كررت ما قاله دون صوت تقريباً، مرتجفة من الخوف: «وحتى يجرّبوا فيّ أنا وحدي قوّة قطع السيف في إنسان مستسلم». حينذاك قبّلها في شفتيها لاوّل مرّة. تخدّر جسد «سييرڤا ماريا» وتأوّهت. انبعثت منها نسمة بحرية خفيفة وتحرّر الجسد ليواجه نصيبه. مرّ على جسمها بأنامله ، دون أن يمسّها تقريباً، وعاش لأوّل مرّة

معجزة الشعور بامتلاكه جسداً آخر. حدثه صوت داخلي عن المدى الذي كان فيه بعيداً عن الشيطان في سهراته اللاتينية والإغريقية، وفي نشوات إيمانه في فلوات الطهر، بينما عاشت هي كلّ قوى الحبّ بحرية في أكواخ العبيد. تركها تقوده متلمّسة جسده في الظلام، غير أنّه ندم في اللحظة الأخيرة واستسلم لتأثير قوّة خلُقيّة كبيرة. بقي نائماً على ظهره مغمّض العينين . خافت «سييرڤا ماريا» من صمته وسكونه الشبيه بالموت فلمسته بأصبعها وسألته.

– «ماذا بك؟».

– «أتركيني الآن، إنّني أصلّي».

لم يجدا في الأيام التالية ساعة طمأنينة إلاّ أثناء لقائهما، ولم يشبعا من الحديث عن آلام الحبّ . أنهك أحدهما الآخر بالقبلات. كانا يُنشدان ، وهما يبكيان بدموع حارة، أبياتاً لعاشقين، ويغنّي احدهما في أذن الآخر. تمرغا في أوحال الرغبة بكل ما أوتيا من طاقة: كانا مضنيين، لكن نقيّان. لقد عزم الاحتفاظ بالتزامه، ونذر نفسه للدين إلى حين استلام السرّ المقدّس، وشاركته رأيه.

وفي لحظات سكون العاطفة، تبادلا تجارب كثيرة. قال لها أنه مستعدّ للقيام بأيّ شيء في سبيلها، فطلبت منه «سييرڤا ماريا»، بكلّ قسوة الطفولة، أن يأكل من أجلها صرصاراً. أمسك بالصرصار قبل أن تستطيع منعه وابتلعه حيّاً. وفي تحدّ جنونيّ آخر سألها عمّا إذا كانت مستعدة لقطع جديلتها من أجله ، فأجابت بالإيجاب ، ولكنّها أردفت من باب المزاح أو الجدّ أن عليه في هذه الحالة أن يتزوجها لتنفيذ شرط النذر. حمل إلى سجنها سكين مطبخ وقال لها:

«لنرَ، إن كان كلامك صحيحاً».

أدارت ظهرها كي يتمكن من قطع الجديلة من أصلها. ألحّت عليه قائلة: «تجرأ». ولم يتجرأ. وبعد أيام سألته عمّا اذا كان مستعداً للسماح لها بذبحه مثل جدي، فأجابها بيقين: «أجل».

أخرجت السكين وأرادت أن تجرّب فقفز فزِعاً وهو يرتعش. تلعثم قائلاً:

«أنت لا ... أنت لا...».

سألته وهي تكاد تموت من الضحك عن سبب تلعثمه، أجابها بصدق:

«إنك تتجرّئين فعلاً».

وفي فترات هدوء العاطفة، أخذا يتمتعان أيضاً بضجر الحبّ اليومي. كانت تحافظ على حجرتها نظيفة مرتّبة ليعود إليها كأنّه الزوج الذي يعود بشكل طبيعي إلى منزله. أمّا هو فقد علمها القراءة والكتابة، والتقرب من طقوس الشعر، والتقوى والإيمان بروح القدس، في انتظار اليوم السعيد الذي سيصبحان فيه حرّين متزوّجين.

في صباح يوم ٢٧ نيسان (إبريل) نامت «سييرڤا ماريا» بعد أن غادر «كايتانو» سجنها، وآنذاك دخل جمع من الناس دون إشعار سابق ليبدأ ممارسة التعاويذ عليها. كانت التعاويذ طقوساً خاصّة بمحكوم عليه بالموت. ذهبوا بها سحلاً إلى الحوض، غسلوها بالسطول، نزعوا عنها قلائدها بعنف وألبسوها رداء الملحدين الخشن. قطعت جديلتَها راهبة من العاملات في الحديقة فظلّ من شعرها ما يصل بالكاد إلي عنقها. سببت لها عملية القص أربعة جروح بمقصّ التشذيب الكبير. رمت في الموقد المشتعل في الحوش، وقامت بقطع

الباقي من شعرها ولم تبق منه إلاّ نصف بوصة مثلما هو شعر الراهبات الكلاريسات، اللواتي اعتدن لقصر شعرهن تغطية رأسهن بمنديل. كانت الحلاقة تذهب إلى موقد النار كلّما قطعت خصلة لترميها فيه. رأت «سييرڤا ماريا» احتراق الشعر الذهبي وسمعت طقطقة اشتعال الحطب وشمّت الرائحة الكريهة اللاذعة لاحتراق شعرها. كانت الرائحة كأنها رائحة قرون، ولكن كل ذلك لم يحرك في محياها المتحجر أنملة أو عضلة. وأخيراً ألبسوها ثوباً يقيّد حركاتها وغطّوها برداء جنائزيّ. حملها اثنان من العبيد إلى الكنيسة الصغيرة فوق نقالة للجنود.

كان الأسقف قد دعا المجلس الكنسي المكون من أصحاب الرّتب والشرفاء، وكان هؤلاء قد اختاروا أربعة من مقرّبيهم للقيام بتمثيلهم في قضيّة «سييرڤا ماريا» . وفي آخر إجراء لتأكيد ذلك، تغلّب الأسقف على عقباته الصحيّة، فرتّب الامور بحيث يكون الحفل خارج الكاتدرائية التي كانت مسرحاً لمناسبات مشهودة في اوقات أخرى، قرّر أن تجري التعاويذ في الكنيسة الصغيرة لدير «سانتا كلارا» ، وعزم الإشراف بنفسه على إجراءات التعاويذ.

تقدمت رئيسة الدير الراهبات الكلاريسات في الجوقة قبل صلاة الفجر. وهناك انشدن تلك الصلاة برفقة الأرغنّ ، متأثرات بهيبة ذلك النهار الذي أوشك على الانبلاج. بعد ذلك بقليل دخل ممثلو أصحاب المناصب الكنسية ورؤساء ثلاث جماعات وكبار المسؤولين في محكمة التفتيش. وعدا هؤلاء الآخرين لم ولن يحضر أيّ مدنيّ آخر.

كان الأسقف آخر من دخل. كان يرتدي زيّ الاحتفالات الكبيرة ويجلس فوق كرسيّ نقّال يحمله أربعة من العبيد . بدا وجهه

كئيباً لا تنفع معه أية تعزية. جلس قبالة المذبح الأكبر، بجانب منّصة التوابيت المرمرية التي تستعمل عند الاحتفال بمراسيم الجنائز الكبرى، وكان كرسيّه دوّاراً لتسهيل حركة جسده. عند الساعة السادسة بالضبط، أدخلت «سييرڤا ماريا» على النقالة مرتدية القميص الذي يقيد حركتها ومغطاة بالرداء البنفسجي.

أصبحت الحرارة لا تطاق خلال نشيد القداس. دوّت الأصوات السفلية للأرغنّ في السقف الخشبي، ولم تكد تترك مجالاً لأصوات الكلاريسات عديمة النغم، أولاء اللواتي اختفين وراء مشربيات الجوقة. بقي الحارسان اللذان حملا «سييرڤا ماريا» بالنقالة إلى المكان، بقيا إلى جانبها استعداداً لتلقي الأوامر . وبعد الانتهاء من القداس كشفوا عنها الغطاء وتركوها مثل أميرة ميّتة على منصّة النعوش المرمريّة. قام عبيد الأسقف بحمله وتقريب كرسيّه منها وتركاهما وحيدين في فضاء واسع أمام المذبح الأكبر.

تبع هذه الخطوة توتّر لا يطاق وصمت تامّ بدا كأنّه استهلال لمعجزة سماويّة . قام سادن بتقريب سطل الماء المقدّس من الأسقف. أمسك بمرشّة الماء المقدّس، كأنّها مطرقة حرب، وانحنى على جسد «سييرڤا ماريا»، ورشّها من رأسها حتى قدميها وهو يغمغم ببعض الصلوات. وفجأة نطق بالتعويذة التي كادت تهز أسس المعبد.

قال صارخاً:

– «لتكن من تكون، بأمر من المسيح، الخالق وربّ ما هو مرئيّ وغير مرئي، وربّ كلّ كائن وذاهب وما سيكون ، اهجر هذا الجسد المعتوق بالعماد وعد إلى الظلمات».

صرخت «سييرڤا ماريا» وهي في أشدّ حالات الذهول والرعب. رفع الأسقف صوته أكثر لاسكاتها، غير انّها صرخت أكثر. شهق الاسقف بعمق وعاد إلى فتح فمه للاستمرار في تعاويذه ، إلاّ إنّ الهواء مات في صدره ولم يستطع دفعه أو إخراجه. هوى مستلقياً على بطنه وهو يشهق مثل سمكة مطروحة على الأرض، وانتهى الحفل في ضجّة هائلة.

في تلك الليلة وجد «كايتانو» «سييرڤا ماريا» ترتعش من الحمّى داخل القميص المقيّد للحركة . أمّا الشيء الذي أثار غيضه أكثر فهو مهزلة رأسها الحليق . وفي الوقت الذي كان فيه يحرّرها من السيور غمغم بغضب كتيم: «يا إله السموات! كيف يمكن أن تسمح باقتراف هذه الجريمة؟!».

لم تكد «سييرڤا ماريا» تتحرر من السيور ، حتى قفزت لتعانقه. وبقيا متعانقين دون أن يتكلما ، وكانت هي تبكي . تركها تروّح عن نفسها، وبعدئذ عدّل رأسها وقال لها: «لا دموع بعد الآن»، وربط قوله ببيت شعر آخر لـ «گارثيلاسو»: «تكفي الدموع التي ذرفتها لأجلكم».

قصّت عليه «سييرڤا ماريا» تجربتها الرهيبة في الكنيسة الصغيرة ، وحكت له عن دويّ الجوقة الشبيه بجلَبة الحرب وعن الصراخ المبهر للأسقف، وعن تنفسّه المحرق وعينيه الخضراوين الكبيرتين المشتعلتين هياجاً.

قالت له:

- «كان شبيهاً بالشيطان ».

حاول «كايتانو» تهدئتها فأكّد لها أنّ الأُسقف ، على الرغم من

صوته القاسي وطُرقه العسكرية، رجل طيّب وحكيم. ظنّ «كايتانو» أن بالإمكان فهم رعب «سييرڤا ماريا» لكنّها كما اعتقد لم تكن تواجه أيّ خطر.

قالت «سييرڤا»:

– «إن ما أريده هو الموت».

– «إنّك تشعرين بالغضب والهزيمة مثلما أشعر بهما أنا لعدم تمكّني من مساعدتك، ولكنّ لا بدّ للخالق أن يكافئنا يوم البعث».

نزع عن رقبته قلاده «أودوا» التي أهدتها له «سييرڤا ماريا» وألبسها إياها لعدم امتلاكها أية قلادة من قلائدها. اضطجعا على السرير جنباً إلى جنب وتقاسما احقادهما، في الوقت الذي كان فيه العالم ينطفئ. أثناء صمتهما لم يُسمع إلاّ صوت قضم الأرضة في السقف الخشبي . هبطت الحمّى فتكلّم «كايتانو» في الظلمات، وقال:

– « ورد في سِفر الرؤيا أن ثمة يوم لن يشرق صباحه أبداً، فليأمر الخالق بأن يكون ذلك اليوم هذا اليوم».

كانت «سييرڤا ماريا» قد نامت ما يقارب الساعة منذ أن غادرها «كايتانو» ، وعندها سمعت صوتاً جديداً أيقظها. رأت قبالتها رئيسة الدير يرافقها راهب عجوز هائل الحجم داكن البشرة مشدودها بفعل الأملاح، وشعر رأسه مندفعاً إلى الأعلى. كان كثّ الحاجبين خشن اليدين، له عينان تدعوان إلى الثقة. قبل أن تستيقظ «سيرڤا ماريا» ، خاطبها الراهب بلغة «يوروبا»:

– «جلبت لك قلائدك».

أخرجها من جيبه مثلما استلمها من أمينة أملاك الدير بطلب منه. وكان كلّما علّق في رقبة «سييرڤا ماريا» قلادة، عدّها وذكر لونها

بلغات افريقية: الحمراء والبيضاء، الحبّ ودم «چانگو » ، الحمراء والسوداء الخاصة بالحياة والموت لـ «إليگوا»، خرز الماء السبع، والازرق الشاحب لـ«يمايا». جعل وهو يتحدث يتنقل بإحساس رقيق بين اللغات، من لغة «يوروبا» إلى لغة «كونگو» ومنها إلى لغة «ماندنگا»، تابعته «سييرڤا» بأناقة ومهارة. وإذ تحول في النهاية إلى اللغة الإسبانية، فلم يكن ذاك إلاّ احتراماً لرئيسة الدير التي لم تصدّق أن في داخل «سييرڤا ماريا» هذا الكمّ من العذوبة.

كان هذا هو الأب «توما دي أكينو دي ناربائيث» ، المدّعي العام القديم لمحكمة التفتيش في اشبيليا، وخوري حيّ العبيد الذي اختاره الأسقف ليحلّ مكانه في مهمّات التعاويذ بسبب اشكالاته الصحيّة. لم يشكّ أحد في سمعته كرجل قاسٍ ، فهو قد أرسل إلى المحرقة أحد عشر ملحداً وناساً من اليهود والمسلمين. غير أنّ صيته قام بشكل خاصّ على الأرواح التي أنقذها من براثن الشياطين الأشدّ مكراً في الأندلس. كان رجلاً عذب الذوق والأسلوب، وله عذوبة حديث أهل جزر الكناري. ولد هنا من أب عمل وكيلاً للملك وتزوّج إحدى عبيداته في سنّ الاربعين. أمضى «توما» مدّة المبتدئين في معهد لاهوتي محليّ بعد أن برهن على نقاء أصله علي مدى أربعة أجيال من الجنس الأبيض. وبناء على جودة نتائجه فقد مُنح شهادة الدكتوراه في اشبيلية حيث عاش وقام بالوعظ إلى سنّ الخمسين. وعند عودته إلى موطنه طلب العمل في الكنيسة الأكثر تواضعاً وتحمّس للأديان واللغات الأفريقية وعاش كأنّه عبد بين العبيد. لم يكن هناك من هو أحسن منه للتفاهم مع «سييرڤا ماريا»، وعليه مواجهة شياطينها.

ظنّت «سييرڤا ماريا» أن الأب «توما» جاء بمثابة ملاك لإنقاذها، ولم يُخطئ ظنّها. فبحضورها فنّد شروح وتفاصيل المحاضر وأوضح لرئيسة الدير أنّ أيّ جزء منها لم يكن قاطع الرأي. وأعلّمها أنّ شياطين أمريكا هم نفس شياطين أوروبا، غير انّها تختلف في اسمائها وسلوكها فحسب. شرح لها القواعد الأربع للتعرّف على المسّ الشيطاني وجعلها ترى كم كان سهلاً عليها استخدام القواعد السالفة لصالحها لكي يعتقد الآخرون عكس الحقيقة . ودّع «سييرڤا ماريا» بقرصة حنونة في خدّها، وقال لها:

– « نامي بهدوء ، لقد رأيت بعض الناس مع أعداء أشدّ فتكاً».

شعرت رئيسة الدير براحة كبيرة ودعته لتناول شوكولاتة الكلاريسات الشهيرة المعطّرة مع بسكويت اليانسون وغرائب الحلويات المخصّصة للنخبة. وبينما جلسا يتناولان كل ذلك في قاعة الطعام الخاصة، لقنها الراهب تعليماته الخاصّة بالخطوات التالية ، فامتثلت لها رئيسة الدير راضية.

قالت رئيسة الدير:

– «لا يهمّني أن تكون هذه البائسة بخير أو شر الذي أرجوه من الخالق هو أن تخرج من هذا الدير بأسرع وقت ممكن».

وعدها الأب الراهب ببذل كلّ الجهود كي ينجز قضيّة «سييرڤا» خلال أيام، وقال:

– «بل ليتها كانت قضيّة ساعات».

عندما ودعا بعضهما بعضاً في غرفة المحادثة، شعر الاثنان بالرضى، ولم يتصور أيّ منهما أنّه لن يعود إلى رؤية الآخـر من جديـد.

وهكذا كان. فالأب «أكينو» مثلما كان يناديه رفاقه، ذهب

ماشياً إلى كنيسته. ومنذ زمن طويل كان يصلّي قليلاً ويعوّض ذلك أمام الخالق بالتلذّذ بعذاب أشواقه. تأخّر عند البوابة مذهولاً بنداءات البائعين على مختلف الأشياء، في انتظار نزول الشمس وعبور الميناء. اشترى أرخص أنواع الحلوى وورقة من يانصيب الفقراء، يدفعه أمل ملح بالفوز والحصول على مبلغ من المال يساعده على ترميم معبده المهمل. وتسلّى لنصف ساعة بالحديث مع المولّدات السوداوات الجالسات كأنّهنّ أصنام أثرية، قبالة بائعي الخردة والصناعات اليدويّة المعروضة على الأرض فوق حصائر من الجوت. وفي حدود الساعة الخامسة عبر الجسر المتحرّك لـ «ختسيماني»، الذي علقت عليه للتوّ جثّة كلب سمين مشؤوم حتى يعرف الناس أنه مات بداء الكلب. حمل الهواء رائحة ورود أوائل شهر أيار (مايو) ، وظهرت السماء أصفى من كلّ ما في العالم.

ثمل حيّ العبيد الكائن عند حافّة المستنقع ببؤسه، ففي الأكواخ المبنية من الطين والمسقوفة بجريد النخل، عاش الناس مع الدجاج والخنازير، واعتاد الاطفال شرب الماء من برك الشوارع. ومع ذلك اعتبر الحيّ الاكثر سعادة، فهو الحي المليء بالألوان الحيّة والأصوات القويّةوخاصة في ساعات الغروب، عندما كان الناس يخرجون الكراسي ويجلسون للتمتّع بلطافة الطقس وسط الشارع. قسّم الخوري الحلوى بين أطفال المستنقع واحتفظ بثلاث قطع لعشائه.

كان المعبد عبارة عن كوخ ذي جدران مبنية من القصب والطين وسقف من الجريد انتصب فوقه صليب خشبي شدّ إلى حمّالة. اشتمل المعبد على مقاعد من الواح سميكةومذبح واحد به قربان واحد ومنبر خشبيّ يستعمله الخوري أيام الأحد للوعظ من فوق بلغات أفريقيّة. وامتد بيت الرهبان التابع للكنيسة وراء المذبح الأكبر، حيث يسكن الخوري بأقلّ الوسائل وفي غرفة لا يوجد فيها إلاّ سرير جلديّ

وكرسيّ خشن. وفي العمق امتد حوش حجريّ وقمريّة من الدوالي ذات عناقيد جافّة وسياجٍ من الشوك يفصله عن المستنقع. والماء الوحيد الصالح للشرب هو ما يستخرج من جبّ مطليّ الجدران بالملاط، في زاوية من الحوش.

ولقد ساعد أحد السدنة المسنّين وطفلة يتيمة يبلغ عمرها أربعة عشر عاماً، في أعمال الكنيسة والبيت. إعتنق كلاهما مذهب «ماندگنا» وتنصرا فيما بعد. وقبل أن يُغلق الخوري بابه لتناول قطع الحلوى الثلاث مع كأس من الماء، ودّع جيرانه الجالسين في الشارع وداعه الروتيني باللغة الإسبانية:

- « ليجعل الخالق لياليكم طيّبة مقدّسة».

وعند الساعة الرابعة صباحاً أنهى السادن، الذي سكن على بعد أمتار من الكنيسة، اللمسات الأخيرة للقدّاس الوحيد . وقبل الخامسة ، ونظراً لتأخّر الخوريّ، ذهب للبحث عنه في غرفته فلم يجده فيها، ولم يعثر عليه في الحوش. بحث عنه أيضاً في الأماكن القريبة لأنّه كان يذهب احياناً للتحدث مع الجيران، فلم يجد له أثراً. أخبر القلة الحاضرة من الناس أن القداس لن يقام لعدم العثور على الخوري. عند الساعة الثامنة، حين كانت الشمس ترسل حرارتها، ذهبت طفلة خادمة إلى الجبّ لجلب الماء ، فوجدت الاب «أكينو» يطوف فوق الماء بسروال نومه، ووجهه نحو الأعلى. كان موتاً مؤثراً وحزيناً وسرّاً مغلقاً لم تُعرف تفاصيله ابداً.واعتبرته رئيسة الدير برهاناً قاطعاً آخراً على أحقاد الشيطان على ديرها.

لم يصل الخبر حجرة «سيرڤا ماريا» التي ظلّت تنتظر الأب «أكينو» بأمل بريء لم تستطع توضيح طبيعته لـ «كايتانو». كان الأب «أكينو» قد وعدها بإنقاذها.

حتى تلك اللحظة ظنّ «كايتانو» و«سييرڤا» أنّ الحبّ كاف لهما ليسعدا. انتبهت «سييرڤا ماريا»، بعد أن خاب أملها بالاب «أكينو»، إلى أنّ الحريّة لا تعتمد إلاّ عليهما شخصياً. وفي فجر أحد الايام، وبعد ساعات طويلة من القبلات رجت «سييرڤا» «دي لاورا» أن لا يغادرها. ظنّ كلامها مزاحاً فودّعها بقبلة أخرى. قفزت من السرير، أوصدت الباب بذراعيها وقالت:

- «إمّا أن تبقى أو أذهب أنا أيضاً».

كانت قد أخبرت «كايتانو» في إحدى المناسبات أنّها ترغب باللجوء معه إلى «سان باسيليو دي پالنكي»، وهي قرية للعبيد الهاربين تقع على بعد اثني عشر فرسخاً من السجن، حيث ستستقبل بلا شكّ استقبال ملكة. بدت الفكرة لـ «كايتانو» ربّانيّة. إلا أنّه لم يحبّذ الهرب، لأنّه في الواقع يثق بالإجراءات الرسمية وباستعادة الماركيز ابنته مبرهناً، وبشكل لا جدال فيه، أنّ ابنته لم يمسها الشيطان، فيحصل بذلك على عفو من أسقفه، وعلى ترخيص له بالالتحاق بإحدى الجمعيات المدنيّة التي يعتبر زواج رجال الدين أو الراهبات فيها أمراً طبيعياً، لا يشعر أحد معه بالفضيحة. وهكذا حاول «دي لاورا» أن يلهي «سييرڤا ماريا» مرّة أخرى عندما وضعته في مفترق طرق. تعلّقت برقبته وهددته بالصراخ. أخذت بشائر الصباح الأولى بالظهور، واستطاع «دي لاورا» فزعاً التحرّر منها فدفعها وهرب في اللحظة التي بدأت فيها صلوات الفجر.

كانت ردود فعل «سييرڤا ماريا» شرسة، فبسبب خلاف بسيط، خدشت وجه الحارسةوأحكمت إغلاق باب سجنها بقضيب، وهدّدت باشعال النار واحراق نفسها إن لم يسمح لها بالمغادرة. صرخت بها الحارسة الهائجة المدمية الوجه:

- «تجرّئي على ذلك، يا وحش «بلثيبو»!».

كان جواب «سييرڤا ماريا» الوحيد اشعالها المرتبة بمصباح القبان المقدّس . تدخلت «مارتينا» بوسائلها المهدّئة ومنعت المأساة. وعلى كلّ حال، طلبت الحارسة في تقريرها الخاصّ بذلك اليوم أن تُنقل الطفلة إلى حجرة سجن أخرى أكثر ضمانة في الجزء المنعزل من الدير.

جعل نفاد صبر «سييرڤا ماريا»، «كايتانو» يُسرع في البحث عن أسلوب عاجل ومختلف للهرب. حاول مقابلة الماركيز مرتين ولم يُفلح لانّ الكلاب المطلقة في المنزل منعته من ذلك. والواقع أنّ الماركيز لم يعد موجوداً هناك فلهزيمته ولخوفه الفائق حاول لاحتماء بـ «دولثي أوليڤيا» ، غير أنّ هذه أغلقت الأبواب في وجهه. طلب منها العون بكلّ الوسائل منذ أن بدأ يشعر بثقل الوحدة، إلاّ انه لم يتلقَ منها إلا جوابها الساخر بارسال طيور ورقيّة له . وفجأة ظهرت دون دعوة أو اشعار. كانت قد كنست المطبخ المهمل ورتّبته، تركت القِدر يغلي على نار الموقد. لبست فستان أيام الاحد ذي الكرانيش من الشاش، المزين بزواق وألوان حديثة. أما الشيء الوحيد الذي أوحي بالجنون فهو قبّعتها ذات الأطراف الواسعة المزخرفة بأسماك وعصافير من قماش.

قال لها الماركيز:

- «أشكرك على مجيئك، كنت أشعر بوحدة قاسية».

وانتهى بكلمات تنمّ عن الاسف الشديد:

- «لقد فُقدت «سييرڤا ماريا».

أجابته دون اهتمام كبير:

- « وما ذلك الاّ بذنب منك، لقد فعلت كلّ ما يمكن أن يؤدي إلى فقدانها».

تنوع العشاء فشمل خضاراً طبخت على طريقة المولّدين وثلاثة أنواع من اللحوم، وأفضل منتجات الحقل. خدمته «دولثي أوليڤيا» بمهارة ربّة بيت تناسب زينتها وهيبتها.

جلست إلى المائدة قبالة الماركيز مثلما فعلا في شبابهما. أكلا بصمت دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر. سال العرق منهما بوفرة وتناولا الشوربة بلا مبالاة زوجين قدم عهد اقترانهما. بعد الانتهاء من تناول الصحن الأول تركت «دولثي أوليڤيا» لنفسها مهلة للتنفّس وتذكّرت السنوات التي مرّت. قالت:

– «كنّا سنصل إلى هذه الحالة».

أصابت الماركيز بعدوى قسوتها. رآها سمينة عجوزاً ينقصها سنّان، وعيناها ذابلتين. لو أنّه ملك الشجاعة وخالف أبيه وتزوجها لكان فعلاً قد وصل إلى هذه الحال. قال لها:

– «تبدين وكأنّك في كامل عقلك».

– «هكذا كنتُ دائماً، ولكنّك لم ترني مطلقاً على حقيقتي».

– «ميّزتُكِ من بين جمعٍ كبير عندما كنتنّ جميعاً شابات جميلات، وكان من الصعب علي تمييز الأفضل منكن».

– «أنا التي ميزت نفسها ولم تميزني أنت. كنتَ دائماً كما أنت الآن: مجرّد شيطان مسكين».

– «إنّك تشتمينني في بيتي الخاصّ».

شجع قربُ وقوع الشجار «دولثي أوليڤيا»، فقالت:

– «إنّه بيتي مثلما هو بيتك ، وكذا البنت وإنْ ولدتها كلبة».

ودون أن تترك له وقتاً للجواب، ختمت قولها:

- «والأسوأ من ذلك كلّه الأيدي التي تركت الطفلة بينها».

- «تركتها في أيدي الخالق».

صرخت «دولثي أوليڤيا» بغضب:

- «بيد ابن الأسقف الذي حوّلها إلى عاهرة وحبّلها».

صرخ الماركيز باستنكار:

- «لو عضضت لسانك لمتّ مسمومة».

- «إنّ «ساگنتة» تبالغ، غير انّها لا تكذب ، ولا تحاول إذلالي فلم يبق لك أحد غيري ليمسح عن وجهك الغبار عندما تموت».

والنهاية مألوفة. تساقطت دموعه في الصحن كأنّها قطرات هائلة من المطر. استيقظت الكلاب النائمة، على صوت الشجار، رفعت رؤوسها حذِرة متأهبة وأخذت تنبح بصوت منخفض. شعر الماركيز بصعوبة في التنفّس . قال لها غاضباً:

- «أترين؟ هكذا كانت ستصبح عليه حالتنا».

نهضت دون أن تنتهي من تناول طعامها. رفعت الصحون ولوازم الطعام وغسلتها وغسلت القدور بحنق شديد، إلى درجة انها كانت كلّما غسلت واحداً منها، حطّمته في المغسلة. تركها تبكي إلى أن قامت بتفريغ بقايا الصحون المحطمة في صندوق القمامة كما لو كانت وابلاً من البَرَد. غادرها دون أن يودّعها.

لم يعلم الماركيز ولا أيّ أحد آخر ، في ايّة لحظة تغيّرت «دولثي أوليڤيا» وتحوّلت إلى إنسانة أخرى، فلم تعد إلاّ طيفاً يظهر في ليالي المنزل.

عوضت الكذبة التي تقول أن «كايتانو دي لاورا» ابن للأسقف

كذبة أخرى أقدم منها تقول إنّهما عاشقان مذ كانا في «سالامانكا». تتلخص رواية «دولثي أوليڤيا» التي أكّدتها وحرّفتها «ساگنتة»، بأنّ «سييرڤا ماريا» محجوزة في الدير لاشباع الشهوات الشيطانية لـ«كايتانو دي لاورا» فقط ، وانها حملت منه طفلاً برأسين، وأنّ لياليها الحمراء ، حسب «ساگنتة»، قد لوّثت جميع الراهبات الكلاريسات.

لم يتمالك الماركيز نفسه فأخذ يتفحّص مستنقعات ذاكرته ليبحث لنفسه فيها عن ملجأ ضدّ الرعب. لم يعثر الاّ على ذكرى لـ«برناردا» ، فحاول أن يردها باشدّ ما كرهه فيها، وهي ارياحها النتنة وأجوبتها الفضّة والخشنة، وعظام قدميها الناتئة كأنّها مخالب الديكة. وكان كلّما حاول تحقيرها أكثر، أصبحت ذكرياتها اكثر مثالية. مهزوماً بأشواقه، أرسل رسولاً إلى معصرة «مهاتس»، حيث يفترض أنها هناك منذ ذهابها، وكانت هناك فعلاً. وكان هدفه من ذلك تدبير الامر بشكل ما. أرسل اليها خبراً يطلب فيه منها أن تنسى أحقادها وتعود إلى المنزل لكي يكون لكلّ واحد منهما رفيقاً ساعة موته.ونظراً لعدم استلامه أي جواب، ذهب بنفسه للبحث عنها.

عاد إلى أعماق ذاكرته ليهتدي للبناء الذي عُدّ أفضل بناية في المملكة، لكن البناية تحوّلت إلى شيء لا قيمة له. وكان من المستحيل تمييز الطريق المؤدي إليها لكثرة الادغال . ولم يبق من معصرة قصب السكّر سوى الحطام، فالمكائن أكلها الصدأ، وكان الهيكلان العظميان لآخر ثورين ما زالا مربوطين إلى ذراع المعصرة. أما البئر فهو الوحيد الذي يبدو على حالته في ظلّ الشجيرات. وقبل أن يتفحّص المنزل المحاط بأرض وعرة فيها منابت للقصب المحترق، شمّ الماركيز رائحة صابون «برناردا»الذي صار مثل رائحتها الطبيعية، وانتبه إلى مدى شوقه إلى رؤيتها. كانت هناك عند حظار الباب جالسة في ارجوحة، تأكل الكاكاو ونظرتها ثابتة في الأفق. كانت تلبس رداء من القطن

الورديّ وشعرها لا يزال رطباً لتحمّمها قبل قليل في البئر.

حيّاها الماركيز قبل صعود الدرجات الثلاث للبوّابة: «مساء الخير!». ردت «برناردا» تحيته دون أن تنظر إليه، كما لو كانت التحية بلا صاحب. واصل المركيز مشيه إليها، وفي طريقه مرّ بنظره على الأفق الممتد فوق الادغال. وعلى مدّ البصر لم ير سوى جبال غير محروثة، وأشجار البغنونية التي تحيط بالبئر أيضاً. سألها: «ما الذي فعله الناس؟»، أجابته «برناردا»، دون أن تنظر اليه مثلما فعل أبوها من قبل، وقالت:

- «ذهبوا جميعاً. فليس هناك أي كائن حيّ على بعد مئة فرسخ من هنا ومن جميع الجهات».

دخل وبحث عن مقعد. كانت الدار متثلّمة، ونمت الشجيرات ذات الأزهار البنفسجية في الأرض وفي ثنايا الطابوق. وفي غرفة الطعام كانت المائدة القديمة بنفس كراسيها المتآكلة بفعل الأرضة، وتوقفت الساعة عند لحظة لا يعرف أحد عنها شيئاً. وغطى كلّ ذلك غبار غير مرئيّ يمكن الشعور به عند التنفّس. حمل الماركيز واحداً من الكراسي وجلس إلى جانب «برناردا» وقال لها بصوت منخفض جداً:

- «لقد جئت من أجلك».

لم يتحرّك لـ«برناردا» ساكن، غير انّها أشارت برأسها إشارة لم تُدرك إلاّ بالكاد. قصّ عليها حالته : المنزل الخاوي والعبيد المختبئون وراء الشجيرات والسكاكين الجاهزة، بأيديهم والليالي الطويلة. قال لها:

- «ليست هذه حياة».

- «لم تكن حياة مطلقاً».

- «ربّما يمكن أن تكون».

- «لم تكن لتقول لي هذا لو علمت مدى كرهي لك».

- «وأنا أيضاً كنت أظنّ دائماً أنّي أكرهك، لكن ما يجري الآن هو انّي لا أعرف ذلك على وجه الدّقة».

فتحت «برناردا» حينذاك قلبها لكي يتمكّن من رؤية نفسه على ضوء النهار. حكت له كيف أرسلها أبوها بحجة السمك والمخلّل، وكيف خدعوها بحيلة قراءة الكفّ القديمة، وكيف اتّفقوا على ان تقوم هي باغتصابه عندما يتجاهلها، وكيف قاموا بالتخطيط لمناورة الحمل بـ «سييرڤا ماريا» بهدف تقييده مدى الحياة. وقالت له إن الشيء الوحيد الذي يجب عليه أن يشكره لها هو عدم تمكّنها، إذ لم يُطعها قلبها، من وضع كميّة من صبغة الأفيون في الشوربة التي تناولها، حسبما تمّ الاتّفاق عليه مع أبيها، حتى لا يعاني من مفعول الأفيون.

قالت له:

- «أنا بنفسي وضعت الحبل في رقبتي، غير انّي لست نادمة. لقد كان انتظاراً طويلاً، ووجب عليّ، اضافة إلى ذلك، أن أحبّ تلك المسكينة المولودة بعد سبعة شهور من الحمل، وأحبّك أنت، وكنت سبب مأساتي».

وضمن كلّ ذلك فانّ آخر درجة من درجات تدهورها، كان فقدانها لـ «يهوذا الأسخريوطي». وفي حمّى البحث عنه لدى الآخرين، استسلمت للزنى بلا حدود مع عبيد المعصرة، الشيء الذي أثار قرفها الشديد قبل تجريبه، اول مرة. كانت تختار معاشريها على شكل مجاميع وتقضي حاجتها منهم وهم واقفون في صفّ طويل في تخوم مزارع الموز، إلى أن قضى العسل المخمّر وقطع الكاكاو علي فتنتها وسحرها. واصبحت متورّمة وقبيحة ولم تستطع رغباتها النفسية موازاة رغباتها الجسديّة. حينذاك بدأت بدفع المكافآت . في البداية

كانت تدفع أكثر للأكثر شباباً وحسب الجمال والسُّمك. وفي النهاية صارت تدفع بالذهب الصافي للذين يتمكنون منها. وتأخرت كثيراً في اكتشاف أنّهم كانوا يهربون زرافات إلى «سان باسيليو دي پالنكي» لإنقاذ أنفسهم من نهمها الذي لا يشبع.

– «حينذاك علمتُ أنّي قادرة على قتلهم ضرباً بالمناجل»،

قالت ذلك دون أن تذرف حتى ولو دمعة واحدة.

– «ليس هم وحدهم، بل أنت أيضاً والطفلة وأبي المستغلّ، وكلّ من أفسد حياتي، غير أنّني لم أعد شخصاً لاتمكّن من قتل أيّ احد».

بقيا صامتين ينظران إلى الغروب فوق الأراضي الوعرة. سمع صوت جمع من الحيوانات بعيداً في الأفق ، وصوت امرأة العزاء ناداهما باسميهما واحداً بعد الآخر، وعندما حلّ الليل تنهّد الماركيز وقال:

– «أرى أنّني لن اتمكّن من شكرك».

نهض على مهله ووضع الكرسيّ في مكانه ورجع من حيث أتى دون أن يودعها ومن غير ضوء.

كانت «مارتينا لا بوردي» في ذلك اليوم قد عقدت جلسة للتطريز استغرقت الصباح كلّه لإنهاء أشغال متأخّرة، وتناولت الغداء في حجرة «سييرڤا ماريا» ، ومن ثم ذهبت إلى حجرتها لتنام القيلولة. وفي اللحظات الأخيرة للمساء، تحدّثت إليها بحزن غريب. قالت لها:

– «لو خرجتِ مرّة من هذا السجن، او إذا خرجتُ أنا اولاً، فتذكريني دائماً. سيكون ذلك المجد الوحيد لي».

لم تفهمها «سييرڤا ماريا» حتى اليوم التالي، عندما ودّعتها

حارستها بصوت مرتفع، لانّ «مارتينا» لم تصبح في حجرتها. كانوا قد فتشوا الدير ولكن لم يعثروا على أيّ أثر لها. وكان الشيء الوحيد الخاصّ بها، الذي عثر عليه، هو ورقة كتبتها بخطّها المنمّق، وجدتها «سييرڤا ماريا» تحت وسادتها وفيها تقول: «سأصلّي ثلاث مرّات في اليوم لتكونوا سعداء».

كانت لا تزال ذاهلة بسبب المفاجأة عندما دخلت رئيسة الدير مع مساعدتها وأخريات من ذوات المناصب: المشاة ودورية من الحرّاس المسلّحين بالبنادق. مدّت يداً غاضبة لتلمس «سييرڤا ماريا» وصرخت بها:

– «إنّك شريكة بالجريمة وستعاقبين».

رفعت الطفلة يدها الطليقة بعزم فسمّرت رئيسة الدير في مكانها.

قالت:

– «رأيتهم يخرجون».

ذهلت رئيسة الدير وسألتها:

– «ألم تكن وحيدة؟».

– «كانوا ستّة».

لم يبدُ ذلك ممكناً وخاصة إذا كانوا قد خرجوا من السطح الذي ليس له سوى منفذ وحيد وهو الفناء المحصّن. قالت «سييرڤا ماريا»، وهي ترفرف بذراعيها.

– «كانت لهم أجنحة خفافيش. فتحوا أجنحتهم في السطح وحملوها طائرين. طائرين حتى الطرف الآخر للبحر».

رسم رئيس الدورية إشارة الصليب مرتعباً وجثم على ركبتيه،

وقال:

- «سلاماً، يا مريم العذراء!».

قال الآخرون على شكل جوقة:

- «حبلت دون أن تقترف اثماً».

كان هرباً مضبوطاً خططت له «مارتينا» بكلّ تفاصيله وبكتمان تامّ منذ أن اكتشفت أنّ «كايتانو» كان يقضي لياليه في الدير. والشيء الوحيد الذي لم تخطّط له، أو ربما لم تهتمّ به، هو أنّه كان عليها إغلاق مدخل النفق من الداخل لتجنّب أيّة شكوك.فقد رآه الباحثون عن ظروف الهرب مفتوحاً فتفحصوه واكتشفوا الحقيقة وبنوه في الحين من جانبيه. نقلت «سييرڤا ماريا» بالقوة إلى غرفة سجن جديدة مُحكمة السدّ بالأقفال تقع في سرادق المدفونات أحياء. وفي تلك الليلة ، وفي ظلّ قمر بهيّ ، حطم «كايتانو» كفيه وهو يحاول هدم بناء النفق.

جرى هائجاً تدفعه قوّة مجنونة للبحث عن الماركيز. دفع الباب دون نداء، ودخل المنزل المهجور الذي لم يكن به أيّ ضوء سوى ما يصله من الشارع، وذلك لانّ الجدران المُجيرة كانت تبدو شفافة بسبب ضياء القمر. كانت النظافة وترتيب الاثاث وزهور أحواض الزرع كلّها على أحسن حال في المنزل المهجور. أثار صرير مفاصل الباب كلاب الحراسة ، غير انّ «دولثي أوليڤيا» أسكتتها بصوت حادّ كأنه أمر عسكريّ. رآها «كايتانو» في الظلال الخضراء للحوش، رائعة وبراقة ، ترتدي غلالة ماركيزة، وشعرها مزيّن بزهور الكاميليا النضرة الشديدة الروائح. رفعت يدها راسمة صورة صليب بالسبابة والإبهام.

سألها:

- «باسم الربّ : من تكونين؟».

- «روح معذّبة».

- «أنا كايتانو دي لاورا، جئت متوسّلاً لأطلب من السيّد الماركيز أن يستمع إليّ للحظة».

لمعت عينا «دولثي أوليڤيا» من الغضب وقالت له:

- « لا يودّ السيّد الماركيز الاستماع الى وغد!».

- «ومن أنت حتى تجيبيني عنه بهذا الشكل الحاسم؟».

- «أنا ملكة هذا المنزل».

- «في سبيل الربّ !، أبلغي الماركيز أنّني جئت للتحدّث معه بشأن ابنته».

وبدون لفّ أو دوران وضع يده على صدره وقال :

- «أموت بحبّها».

- «لو تلفّظت كلمة أخرى ، فسأطلق الكلاب».

قالت «دولثي أوليڤيا» بحنق وأشارت الى الباب :

«أخرج من هنا».

بدت مسيطرة ذات قوّة شديدة إلى الحدّ الذي جعلت « كايتانو» يخرج من المنزل سائراً إلى الخلف، لكي لا يحوّل نظره عنها.

وفي يوم الثلاثاء، عندما دخل «أبرينونثيو» إلى مخدعه الخاصّ بالمستشفى ، التقى «دي لاورا» محطّماً بفعل سهراته القاتلة. حكي له كلّ شيء ابتداء من الأسباب الحقيقية لعقوبته وحتى ليالي الحبّ في حجرة السجن . بدت علائم الحيرة على «أبرينونثيو» وقال:

- «كنت اتوقّع أن تقوم بايّ شيء، باستثناء هذا الجنون

المتطرّف».

سأله «كايتانو» بدهشة:

«ألم تمرّ بتجربة كهذه؟».

- «أبداً، يا بنيّ، فالجنس موهبة وأنا لا أملكها».

وحاول اقناعه قائلاً إنّ الحبّ شعور غير طبيعيّ يُدين شخصين غريبين، يتعلّق أحدهما بالآخر برباط بائس ووخيم، وكلّما ازدادت حدّته، زال بشكل أسرع. غير انّ «كايتانو» لم يستمع إليه، فرغبته الملحّة هي الهرب إلى أبعد مكان ممكن عن القمع المسيحي.

قال «دي لاورا»:

- «الماركيز هو الوحيد الذي يستطيع مساعدتنا حسب القانون، لقد أردتُ التوسّل إليه جاثماً على ركبتي، غير إنّي لم أعثر عليه في منزله».

- «لن نعثر عليه أبداً، فالأخبار التي وصلته تقول أنّك أردتَ استغلال الطفلة، وإنّني أرى الآن، من وجهة نظر شخص مسيحيّ، أنّه كان محقاً».

نظر إلى عينيه وقال:

- «ألا تخاف أن تُدين نفسك، وتهلك هلاكاً أبدياً؟».

- «أظنّ أنّني مُدان، ولكن لا من قبل الروح المقدس، كنت أظنّ دائماً أنّ الروح المقدس يأخذ بنظر الاعتبار الحبّ أكثر من الإيمان».

لم يتمكن «أبرينونثيو» من إخفاء الإعجاب الذي سبّبه له ذلك الرجل المتحرّر لتوّه من كلّ ما من شانه أن يؤدّي إلى عبوديّة العقل. غير انّه لم يعطه وعوداً زائفة، وخاصة أن محكمة التفتيش موجودة.

قال «أبرينوثيو»:

- «لديكم انتم دين للموت يُلهمكم الشجاعة والسعادة لمواجهته أمّا أنا فلا : إني اعتقد أنّ الشيء الجوهريّ الوحيد هو الحياة».

طاف «كايتانو» في الدير ، حيث دخل في عزّ النهار من باب الخدمة وعبر الحديقة، دون أيّ حذر ، متيقناً أنّه صار غير مرئيّ بعد كل صلواته. صعد إلى الطابق الثاني وعبر الممرّ الخاوي ذا السقف المنخفض جداً الذي كان يصل بين جزئي الدير، ودخل إلى العالم الصامت للمدفونات أحياء. ودون علم منه مرّ أمام حجرة سجن «سييرڤا ماريا» حيث كانت تبكي عليه. كان على وشك الوصول إلى سرادق السجن، عندما أوقفته صرخة من ورائه:

- «قف!».

التفت فرأى راهبة ملثمة ترفع بيدها صليباً تعرضه في وجهه. تقدّم خطوة إلى الامام، غير ان الراهبة منعته بالصليب وصاحت به:

- «ابتعد!».

سمع من ورائه صوتاً آخر يقول: «ابتعد!»، ثمّ صوتاً آخر وآخر: «ابتعد!». دار حول نفسه عدة مرّات فانتبه إلى أنّه في وسط حلقة من الراهبات، كأنّهنّ أشباح ملثّمة، كنّ يضيّقن عليه الحصار صارخات والصلبان في أيديهنّ:

- «ابتعد، أيّها الشيطان!».

بلغ «كايتانو» درجة الإنهاك ، وحوكم أمام محكمة التفتيش في ساحة عامّة متهماً بالإلحاد، الشيء الذي أثار اضطرابات شعبية واختلافات في الكنيسة نفسها. ونتيجة لترحّم خاص، تمّ تخفيض حكمه وأُرسل للعمل كممرض في مستشفى «أمور دي ديوس»،

حيث عاش سنوات طويلة يعاشر مرضاه، ويأكل معهم وينام على الأرض ويستحمّ في أحواضهم المليئة بمياه مستعملة، غير أنّه لم يصل إلى مبتغاه الذي صرح به وهو الإصابة بالجذام.

كانت «سييرڤا ماريا» قد انتظرته دون جدوى. وبعد ثلاثة أيام أضربت عن الطعام بدافع التمرّد ممّا زاد في أعراض إصابتها بمسّ شيطاني.

تشوّش الأسقف لسقوط «كايتانو»، وللموت الغامض للأب «أكينو» ، والصدى الشعبي لمحنته التي خرجت عن حكمته وسلطته، مما أدّى به إلى التكلّف من جديد بأمور التعاويذ ، التي استأنفها بحيوية يصعب تفسيرها بسبب حالته وتقدّم عمره. واجهته «سييرڤا ماريا» هذه المرّة برأسها الحليق بالشفرة والقميص المقيّد، واجهته بشراسة شيطانية متحدّثة بلغات أو بأصوات طيور جهنّمية. وفي اليوم التالي شعرت بهدير هائل لحيوانات هائجة واهتزت الأرض، وعندها لم يكن بالإمكان التفكير بانّ «سييرڤا ماريا» لم تكن في عهدة كلّ شياطين الجحيم. وعند عودتها إلى السجن أعطيت حقنتين شرجيتين بماء مبارك، وكان هذا هو الاسلوب الفرنسي لطرد ما يمكن أن يتبقى في أحشائها.

استمرّت المطاردة ثلاثة أيام أخرى . وعلى الرغم من أنّها لم تأكل منذ أسبوع، فقد استطاعت «سييرڤا ماريا» أن تحرّر إحدى ساقيها، وضربت الأسقف بكعب قدمها في بطنه فسقط على الأرض. انتبهوا حينذاك فقط إلى أنه كان بامكانها التحرّر ، وذلك لانّ السيور لم تعد تشدّ أعضاء جسدها لشدّة هزالها. وبفعل خطورة الحالة فقد كان من المنطق وقف التعاويذ. وكان هذا ايضاً رأي المجمع الكنسي، غير أنّ الأسقف اعترض على ذلك.

لم تعرف «سييرڤا ماريا» مصير «كايتانو دي لاورا» مطلقاً، لأنّه لم يعد إليها بسلّته المليئة بالحلوى اللذيذة التي اعتاد شراءها من البوابة، ولم تره في لياليه التي لا يشبع فيها. وفي يوم ٢٩ أيار (مايو)، وبأنفاس متقطّعة، حلمت من جديد بنافذة الحقل المغطّى بالثلوج. لم يكن «كايتانو دي لاورا» معها، ولن يكون أبداً. بدت في الحلم وفي حضنها عنقود من العنب حبّاته ذهبية ، وكلّما أكلت واحدة منها، برعمت أخرى في مكانها. لم تنزع هذه المرّة الحبّات واحدة واحدة، بل اثنتين اثنتين، دون أن تتنفّس تقريباً، بدافع من شوقها الشديد لكسب حبّة العنقود الأخيرة. دخلت عليها الحارسة التي جاءت لتهيئتها للجلسة السادسة من التعاويذ ، فوجدتها ميتة من الحبّ في السرير ، وعيناها تشعان، وبشرتها كأنّها بشرة طفل حديث الولادة . كانت جذور شعرها قد نبتت كأنّها فقاعات في الرأس الحليق، وبدأ شعرها ينمو شيئاً فشيئاً.

(انتهى)

عن الحب وشياطين أخرى

في روايتــه الأخـيـرة هذه، وكـمـا هي الحــال في مـعظم كـتـابـات الروائي الكولومبي «غارسيا ماركيز»، يجـد القارئ نفسه أمـام عمل أدبيّ متكامل ذي بناء فنيّ محكم يصعب العثور عليه لدى الكثيرين من الكتّاب.

فبلغتـه السـاحـرة ينقلنا «مـاركـيـز» إلى الأجـواء الخـاصـّة والغـريبـة لمدينة كاريبية خلال القرن الثامن عشر، حيث تجري أحداث روايته.

يشدّ المؤلّف قـارئه منذ الصفحـات الأولى عندمـا يصف بالتـفـصيل ظروف التعـايش بين عائلة أرستقراطيـّة من المولّدين وجمع كبير من الخـدم والعـبيد ذوي الأصول المتنوعـة الهندية والأفـريقية. ومن خـلال التـعـامل اليـومي لتلك الجماعة، نطّلع على جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية لتلك الفترة، وعلى الكثيـر من عادات وتقـاليد السكان الهنود الأصليين أو ذوي الأصـول الأفريقيـة. وينعكس كل ذلك على سلـوك أفراد تلك الجـمـاعـة المتـعـايشـة: في اللغـات المتنوعة التي يتحدّثونها، وفي الديانات والمعتقدات والشعائر والطقوس التي يمارسونها وورثوها عن قدمائهم.

الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان – الأردن
التوزيع: المركز العربي للمطبوعات
بيروت – لبنان

تصميم ولوحة الغلاف: محمد نصرالله